أمريكا والمذابح الجماعية

نعوم تشومسكي ← بوش..تلميذ هتلر النجيب!

روبرت بيرو ← أصبحنا أمة جاهلة..تخون أصدقاءها

روبرت فيسك — الكاتب البريطاني الشهير — أمريكا استعانت بإسرائيليين لتعذيب العراقيين

جون بيلجر — كاتب بريطاني — حرب قذرة

روبرت شير — لوس انجلوس تايمز — الله لم يفوض بوش

باولو كويلهو — روائي برازيلي شهير — سيدي الرئيس بوش :شكرا على هذه المهزلة!

اندرو موارى — الجارديان — جرائم بوش وتابعه بلير

جون بيلجر — كاتب بريطاني — أيام العار في بريطانيا

توماس والكوم ← بوش مجرم حرب عليه ألا يذهب إلى بلجيكا

ايهاب كمال محمد



أمريكا
والمذابح الجماعية

اعداد

إيهاب كمال محمد

الحرية
للنشر والتوزيع

٣ ميدان عرابى وسط البلد القاهرة ت: ٥٧٤٥٦٧٩ ٠١٢٣٨٧٧٩٢١

كتاب : أمريكا والمذابح الجماعية

إعداد : إيهاب كمال محمد

رقم الايداع : ٢٥٦٩ /٢٠٠٤

الترقيم الدولي : 977-5832-41-1

مـدخــل
«قائمة بالمجازر»

حروب كثيرة خاضتها أمريكا فى تاريخها.. بدءاً بحرب فيتنام وحتى أولى حروب القرن الحالى وهى الحرب على طالبان وتنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن وهى ما أطلقت عليها إسم «العدالة المُطلقة».. حروب عسكرية عديدة خاضتها أقوى دولة فى العالم.. بعضها مُنيت فيها بهزيمة والبعض الآخر خرجت منها منتصرة..

وفى هذا «المدخل» نستعرض تلخيصاً للمجازر الأمريكية تعرف العالم على الدور الأمريكى فى الحروب خلال الحرب العالمية الثانية حيث قادت الولايات المتحدة الأمريكية دول التحالف إلى النصر وألحقت الهزيمة بدول المحور بعد دخولها الحرب فى ديسمبر عام ١٩٤١ بعد ما هاجم الطيران اليابانى دون سابق إنزار الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور يوم ٧ ديسمبر من نفس العام.

وبعد دخول الولايات المتحدة الحرب بجانب دول التحالف بمثابة القشة التى قسمت ظهر دول المحور لأنها كانت قبل ذلك من دول الحياد وإن كان عدد من المحللين العسكريين يعتقدون أنها فقدت حيادها بالمساعدات التى كانت تقدمها لبريطانيا أثناء الحرب.. ولكنها دخلت الحرب رسمياً بعد الهجوم الذى شنّه الطيران اليابانى على الأسطور الأمريكى حيث تسبب وأعطى الشعب الأمريكى دفعة قوية كان يستحيل بدونها تهيئة الرأى العام للدخول فى الحرب.. وبعد إعلان الولايات المتحدة الحرب إستمر الصراع

لمدة ٤ أعوام ومرّ بمراحل كثيرة حققت خلالها قوات المحور العديد من الإنتصارات ولكن فى النهاية رجحت كفة الحلفاء بعد أن أعلنت اليابان إستسلامها رسمياً يوم ١٠ أغسطس عام ١٩٤٥ بعد أن ألقت الولايات المتحدة الأمريكية بقنبلتها الذرية الأولى فى ٦ أغسطس على مدينة هيروشيما وأعقبتها بقنبلة ثانية فى ١٩ أغسطس على مدينة نجازاكى ودخل الجنرال «دوجلاس ماك آرثر» رئيس قوات الحلفاء اليابان ليبدأ إحتلال الحلفاء لها وفرض دستوراً على البلاد تخلى فيه الإمبراطور عن ألوهيته وعن كل سلطاته كما حُرم الدستور الجديد اليابان من إمتلاك جيش هجومى وعلى مدار ٤ سنوات كاملة شاركت الولايات المتحدة الأمريكية مع دول التحالف فى إضعاف القوة العسكرية لدول المحور حيث إجتمع فى يناير ١٩٤٣ كل من روزفلت وتشرشل وديجول فى الدار البيضاء وانتهوا بصياغة وثيقة تحدد ضرورة إجبار ألمانيا وإيطاليا واليابان على الإستسلام دون شروط ونجح الحلفاء بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية فى الإطاحة بموسولينى وإعلان سقوط الفاشية وفي ١٣ فبراير عام ١٩٤٥ بدأت القوات الجوية الأمريكية فى شن هجمات على مدينة «د/ سرن» الألمانية وهو ما تسبب فى مقتل أكثر من ٢٥٠ ألف قتيل فى يومين، وفى العاشر من مارس من نفس العام تقصف الطائرات الأمريكية طوكيو فى عملية «إعصار النار» التى أودت بحياة ١٢٥ ألف شخص.. وإنتهت الحرب أيضاً على يد الولايات المتحدة بعد أن أنهت القوة العسكرية اليابانية بإلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونجازاكى.

لعنة فيتنام

فيتنام كانت البداية وكان السقوط المُروع.. وكانت العقدة التى أصابت المجتمع الأمريكى وسرعان ما تحولت إلى لعنة لاتزال تطارد كل أمريكى!

«السلام فى خطر» هذه هى العبارة التى بدأ بها الرئيس الأمريكى وقتها جونسون خطابه إلى الشعب الأمريكى. وإذا أردنا الدقة لقلنا أنه بيان حرب.. قال جونسون فى بيانه:

«السلام فى خطر. الحرب قد تنشب فى أى لحظة!!

وبدأ العالم أجمع يعرف ما يجرى فى فيتنام الشمالية عندما أذاع جونسون بياناً إلى الشعب الأمريكى بشأن الموقف فى جنوب شرق آسيا.. قال فى بيانه: «بصفتى رئيسياً للجمهورية وقائداً أعلى أرى من واجبى أن أُحيط الشعب الأمريكى علماً بأن تجدد الأعمال العدوانية ضد السفن الأمريكية فى أعالى البحار فى خليج تونكين قد إقتض أن أصدر أمرى إلى القوات الأمريكية العسكرية أن تتخذ الإجراءات الكفيلة بالرد على هذا العدوان».

وبدأت الحرب. التى ظنتها أمريكا سهلة. خاصة أن المسئولين الأمريكيين قالوا قبل مهاجمة فيتنام أننا أخذنا فى حسباننا كل الإحتمالات الممكنة.. وأعلن بعدها وزير دفاع أمريكا روبرت مكنمارا فى مؤتمر صحفى عقده بواشنطن أن الطائرات الأمريكية شنت ٦٤ غارة على ٤ قواعد زوارق الطوربيد فى فيتنام الشمالية. مما أدى إلى غرق ٢٥ من هذه القوارب..

أيضاً ضربت الطائرات الأمريكية المنشآت التابعة لقواعد زوارق الطوربيد.

وسرعان ما وجدت أمريكا نفسها تخوض حرباً بلا حدود سقط فيها الآلاف من القواعد الأمريكية حيث فقدت القوات الأمريكية أكثر من ٥٠ ألف قتيل فى إقتحامها لفيتنام ويا ليت الأمر توقف عند ذلك. إنما تعداه إلى ما هو أخطر وأقطع. حينما إرتكبت أمريكا أبشع الجرائم وذلك عندما إعترفت وزارة الدفاع الأميريكية باستخدامها للغازات وإتلافها المزارع لإرغام قوات التحرير على التسليم.

الإنسحاب

وبعد أن دخلت أمريكا حرباً مع فيتنام ارتكبت فيها أبشع الجرائم ضد الشعب الفيتنامى جعلت العالم يصف أمريكا بالوجه القبيح. فجأة أعلنت أمريكا إستعدادها للتعاون بلا شروط لوقف القتال وتظاهر أكثر من ٥٠ ألف مواطن أمريكى فى مسيرة سلمية إلى واشنطن للمطالبة بوقف الحرب فى فيتنام.

علمية طهران

لم تستطع المخابرات الأمريكية تدعيم حكم الشاه ومنعه من الإنهيار. حيث سقط على يد الثورة الإيرانية فى ٢٨ سبتمبر عام ٧٨ وكان هذا السقوط بمثابة لطمة قوية على وجه المخابرات الأمريكية.

ولم تمضى سوى شهور قليلة على حكم الثورة الإيرانية بزعامة الخومينى. حتى فوجئت المخابرات الأمريكية بصفعة أخرى على وجهها حينما إحتل حوالى مائة من العناصر الموالية لآية الله الخومينى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران وإحتجزوا مائة شخص من العاملين بالسفارة كرهائن فى مقابل المطالبة بتسليم الشاه السابق.

وذكر المهاجمون وهم طلبة أن معركة قد دارت بينهم وبين من وصفوهم «بالمرتزقة الأمريكيين» إستمرت ثلاث ساعات وقالوا إنهم يحظون بتأييد فيما يتعلق بمطالبتهم بتسليم الشاه وأعوانه لمحاكمتهم. وفى واشنطن دعا الرئيس الأمريكى وقتها كارتر إلى إطلاق سراح جميع الرهائن الأمريكيين فوراً. لكن هيهات أن يستجيب الخاطفون وبدأت أمريكا تعد العدة لتخليص الرهائن. ولكن الواقع كان أليماً. وكانت النهاية خسارة وفضيحة فى الوقت نفسه!

ففى فجر يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٨٠ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بمحاولة جريئة لإنقاذ الرهائن الأمريكيين فى إيران. هبطت قوة من الكوماندوز الأمريكيين بطائرات الهليكوبتر فى إحدى الصحارى القريبة من

طهران إتخذوا وضع الإستعداد للإنقضاض على السفارة الأمريكية وتخليص الرهائن وقبل بدء تنفيذ العملية فوجئوا بعطل أصاب الأجهزة الفنية وتعطلت الإتصالات بين القيادة وبين الطائرات المشتركة فى العملية وصدرت التعليمات بالإنسحاب فوراً وأثناء إنسحاب أفراد الطاقم المشترك فى العملية إصطدمت طائرتان هليكوبتر على الأرض ولقى ثمانية من أفراد طاقم الطائرتين مصرعهم وأصيب عدد آخر وأمكن إخلاء القتلى والمصابين وجميع المشتركين فى العملية من الأراضى الإيرانية دون أى إشتباك مسلح مع الإيرانيين الذين لم يعلموا بها إلا بعد أن أعلن عنها فى واشنطن. وأصدر البيت الأبيض بياناً قال فيه أنه يأخذ على عاتقه المسئولية الكاملة عن إتخاذ القرار بمحاولة إنقاذ الرهائن.

وكانت المفاجأة عندما أفرجت إيران عن الرهائن بعد عقد صفقة مالية مع أمريكا . خرجت بعدها إيران هى الفائزة فقد حصلت على مبلغ ٢٨٧٠ مليون دولار من إجمالى أرصدتها التى جمدتها أمريكا وتبلغ ١٢ الف مليون دولار.

جريناداا!

فى أوائل الثمانينات قفزت جزيرة جريـنادا إلى بؤرة الأحداث كنقطة جديدة فى محاور الصراع الدولى الدائر فى أماكن عديدة فى العالم.. فقد شهدت تلك الجزيرة الضئيلة المساحة فى البحر الكاريبى والتى لا يزيد عدد سكانها من ١١٠ آلاف نسمة غزواً بحرياً قامت به الولايات المتحدة الأمريكية بالاشتراك مع ٦ دول من أمريكا اللاتينية واستولت قوى التدخل على محطة الإذاعة والمطارين الوحيدين بالجزيرة بعد قتال مع القوات الحكومية والميليشيات الشعبية فى محاولة لإعادة المؤسسات الديمقراطية التى أطاح بها إنقلاب يسارى وأصفر عن مقتل رئيس الحكومة موريس بيشوب نفسه قد تولى السلطة نتيجة إنقلاب عسكرى فى عام ٧٩ . إلا أنه لم يكن دموياً .

وبعد تحريرا! جرينادا إتهم الرئيس الأمريكى رونالد ريجان . وقتها . فى خطاب له . كوبا بأنها كانت تسعى إلى إحتلال جرينادا وقال أن القوات الأمريكية إكتشفت قاعدة كوبية كاملة بها أسلحة وأجهزة إتصالات.

غزو بنما

هذه الحرب قادها جورج بوش الأب فى أواخر الثمانينات. تحديداً عام ١٨٩؛ حينما قامت القوات الأمريكية بعملية غزو عسكرية لبنما بأوامر من الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى كان يتابع تطورات الموقف لحظة بلحظة من مكتبة بالجناح الغربى فى البيت الأبيض. وقال المسئولين وقتها أن عملية الغزو وإستهدفت إعتقال مانويل نورييجا رجل بنما القوى وترحيله إلى الولايات المتحدة ومحاكمته هناك بتهمة الإتجار فى المخدرات وتنصيب مرشح المعارضة المنتخب رئيساً للبلاد.

وصرح وقتها الجنرال كولين باول رئيس هيئة الأركان المشتركة للقوات الأمريكية بأن سبعة آلاف جندى أمريكى إشتركوا فى الهجوم ونجحوا فى قطع رأس حكومة بنما وتحويل رجلها القوى نورييجا إلى هارب.. ثم تمكنت القوات الأمريكية بعد ذلك من القبض عليه ومحاكمته فى أمريكا.

الهروب من الصومال

«عملية الأمل» هى الاسم الذى إختارته الإدارة الأمريكية لتنفيذ مهامها بمساعدة قوات دولية من عدة دول تدخلت فى الصومال تحت ستار الأمم المتحدة فى نهاية عام ٩٢ لإعادة المصالحة بين الفصائل الصومالية المتناحرة والتى قسمت الصومال إلى دولتين و ٨٠ قبيلة و ٣٦ تنظيما وتحركات القوات الأمريكية بناء على تقارير من المخابرات المركزية بجدوى تدخلها فى الصومال . لكن القوات الأمريكية منيت بفشل ذريع وهزائم شديدة على يد فارح عديد وفقدت فى معاركها ضده ١٨ جندياً أمريكياً . وفشل «جوناثان أهاو» أميرال البحرية الأمريكية فى القبض على «فارح عديد» ومنى بخسائر شديدة القسوة.. وفشلت القوات الأمريكية فى تحقيق أهدافها وقامت بقية القوات الدولية بالإنسحاب عام ٩٥ وراحت المخابرات المركزية الأمريكية تلقى بأسباب فشلها فى تحقيق المصالحة بين الفصائل الصومالية المتناحرة على إيران والسودان وليبيا بتهمة إمداد قوات الزعيم الصومالى فارح عديد الذى فشلت أمريكا فى إسقاطه بالسلاح، وكان الصقوط الأمريكى فى الصومال سقطته جديدة تتحملها فى المقام الأول المخابرات الأمريكية.

الوحش الصربى

كارثة المسلمين فى كوسوفا ليست مجرد عملية عنصرية للتطهير العرقى نفذها أولئك الشياطين الصرب. الذين إنطلقوا من معاقلهم فى أطلال الاتحاد اليوغسلافى السابق وكان على رأس هؤلاء السفاحين مجرم الحرب الدولى الصربى سلوبودان ميلوسيفيتش. الذى إرتكب هو وقواته أبشع الجرائم الإنسانسة ضد المسلمين من قتل وتعذيب وسفك دماء وإغتصاب وحشى.

وقامت بعدها قوات حلف شمال الأطلنطى. إزاء هذه المجازر الوحشية بحملات عسكرية منظمة ضد القتلة وقتها أكد الرئيس الأمريكى كلينتون بأن هجمات الأطلنطى ضد يوغسلافيا تستهدف حماية مسلمى كوسوفا وأيضاً الدفاع عن المصالح الحيوية الأمريكية فى منطقة البلقان وكانت نتيجة هذه العمليات تدمير ٢٠٠ هدف يوغسلافى فى ٦٠٠ طلعة جوية شنتها طائرات الحلف فى ٢٤ ساعة وأكد وقتها الرئيس الأمريكى بيل كلينتون ثقته فى نجاح أهداف الحملة الجوية لحلف الأطلنطى ضد يوغسلافيا وتعهد كلينتون بعدم التورط فى مستنقع جديد يشبه مستنقع حرب فيتنام.

غزو الكويت

عندما أعلنت الساعة تمام الرابعة والنصف من فجر يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠.. تحرك حوالى ١٠٠ ألف جندى عراقى فى إتجاه الأراضى الكويتية ليفرضوا نفوذهم وسيطرتهم عليها.. معلنين بداية الغزو العراقى للكويت.. وسرعان ما خرج كبار المسئولين بالحكومة العراقية بتصريحات إعلامية قرروا فيها أن غزو القوات العراقية للكويت جاء تلبية لنداءات الشعب الكويتى لتخليصه من النظام الحاكم به.. بعدها بقليل خرجت الإذاعة العراقية لتتلو البيان رقم واحد لها أطلق عليه «الحكومة الكويتية المؤقتة» زعم فيه عزل أمير البلاد وحل المجلس الوطنى وتشكيل ما يسمى بالحكومة الحرة.

وفى رد فعل سريع للولايات المتحدة الأمريكية على أثر الغزو قررت أمريكا تجميد الودائع والممتلكات الكويتية والعراقية لديها ولدى الفروع والمؤسسات التابعة لها فى الخارج بعد أن أدانت الغزو العراقى للكويت وطالبت بإنسحاب القوات العراقية فوراً وبدون شروط. ومن جانبه أجرى الرئيس حسنى مبارك إتصالات هاتفية مكثفة مع أمير الكويت من مقر إقامته بالسعودية وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ورؤساء اليمن وسوريا والعراق وملك الأردن فى محاولة لإحتواء الأزمة.

كما أدان مجلس الأمن الغزو العراقى للكويت.. وطالبت بإنسحاب القوات العراقية تنفيذاً للقرار رقم ٦٦٠

التحـريـر

بعد أن ظلت القوات العراقية تفوض سطوتها على الكويت طوال سبعة أشهر، رفضت خلالها السلطة العراقية إحترام النداءات والمحاولات الدبلوماسية على المستوى العالمى بضرورة الإنسحاب الفورى من الأراضى الكويتية وبإصدارها على الغزو، وأعلنت قوات التحالف الدولى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية فجر يوم ٢٨ فبراير ١٩٩١ بداية حرب تحرير الكويت بشن هجمات عسكرية شرسة تستهدف ضرب المواقع العسكرية للقوات العراقية داخل الأراضى الكويتية لإرغامها على الإنسحاب أمام الهجوم المتواصل لقوات التحالف براً وبحراً وجواً.

حتى أعلن العراق إنسحابه الكامل من الأراضى الكويتية معلناً هزيمته أمام قوات التحالف.

ثم تلا تلك الحرب أحداث هاييتى، وكولومبيا وأحداث ١١ سبتمبر والحرب على أفغانستان حيث كانت معقل حركة «طالبان» ثم الحرب مرة أخرى على العراق وإحتلال مُدنها.

وسيأتى تفصيلاً لما سبق فى الفصول التالية من هذا البحث الذى يدور حول الجذور الإستعمارية للولايات المتحدة والمجازر الجماعية التى إقترفتها فى بقاع شتى من العالم.

مرحلة التكوين
لأمريكا الإستعمارية

مرحلة التكوين لأمريكا الإستعمارية

«إذا كانت الطفولة «مرحلة التكوين» تؤثر فى باقى مراحل حياته اللاحقة وتترك عليها بصماتها فالطفولة بهذا المعنى «كمرحلة التكوين» تُعدُّ قاسماً مشترك بين «الفرد» والمجتمع.. فهو ناموس طبيعى كونى.. وإطلالة على مرحلة التكوين «تعدُّ «نقطة ضوء كاشفة» تُملكنا من إستشراف الآتى وفهم السلوك فى الماضى والحاضر وإستشراف المستقبل.

يرجع تكوين الولايات المتحدة الأمريكية إلى المرحلة الإستعمارية التى أعقبت حركة الكشوف الجغرافية فى نهاية القرن الخامس عشر فإثر إكتشاف كريستوفر كولمبس للعالم الجديد ١٤٩٢ تسابقت الدول الأوروبية إلى إستعمار هذا العالم الجديد.

وكانت قارة أمريكا الشمالية ميداناً لتنافس ثلاث دول أوربية هى إنجلترا وفرنسا وأسبانيا. فاستعمرت أسبانيا الأجزاء الجنوبية من القارة واستحوذت فرنسا على شمال ووسط القارة فى حين إستحوذت إنجلترا على السواحل الشرقية للقارة حيث تأسس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (فيما بين ١٦٠٧ ـ ١٧٣٢) ثلاث عشرة مستعمرة تابعة للتاج البريطانى إمتدت فيما بين ساحل المحيط الأطلنطى وجبال الأبلاش وكانت هذه المستعمرات أو الولايات هى النواة التى قامت عليها جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية.

ولسنا هنا بصدد سرد تاريخ هذه الفترة الإستعمارية الطويلة التى بدأت بتأسيس مستعمرة جيمس تاون ـ فلا دلفيا ـ فى عام ١٦٠٧ وأستمرت لأكثر من قرن ونصف القرن عندما بدأت حركة الإستقلال الأمريكية بعد عام ١٧٦٣ لكن مع ذلك لا يمكن أن نتجاهل تاريخ هذه الفترة بإعتبارها فترة أو مرحلة التكوين ولذلك فسوف نتوقف عند عدد من الظواهر التى كان لها تأثيرها على تشكيل الكيان الأمريكى وتطوره والتى مازالت بصماتها مستمرة بشكل أو اخر فى مسار التاريخ الأمريكى حتى الآن وأهم الظواهر التى سنتوقف عندها خلال مرحلة التكوين الإستعمارية هى ثلاث ظواهر:

الأولى. ظاهرة العنصرية وغطرسة القوة

الثانية. ظاهرة الأقلية الذكية والجمهور الوضيع.

الثالثة ظاهرة الفلسفة البراجماتية «النفعية»

١ـ ظاهرة العنصرية وغطرسة القوة

فقد كان مجتمع المهاجرين الأوربيين الذين إستوطنوا الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية خليطاً غير متجانس خرج من رحم قارة أوروبا بكل تناقضاتها وتنوعها وكان منهم الأيرلنديون والاسكتلنديون والسويديون والألمان والفرنسيون وغيرهم من القوميات الأوروبية لكن الأغلبية العظمى من هؤلاء المستوطنين كانوا من الإنجليز ولذلك تم بسهولة منع هؤلاء المهاجرين وهذه المستوطنات بالطابع الإنجليزى فقد كانوا جميعاً ينتمون إلى الجنس الأبيض والحضارة الأوروبية؟

وكان الإضطهاد الدينى سبباً رئيسياً وراء هجرة هؤلاء الأوربيين البيض فقد شهدت أوروبا آنذاك صراعاً دينياً حاداً بين الطوائف المسيحية المختلفة وتعرضت طوائف البروتستانت من بيوريتان وهيجونوت وكويكرز وغيرهم فى مختلف أنحاء أوروبا لإضطهاد شديد ولذلك كان معظم المهاجرين من طوائف البروتستانت الذين تأثرت عقائدهم الدينية بتعاليم العهد القديم وخاصة عقيدة الشعب المختار وأرض الميعاد فتصوروا أنفسهم شعب الله المختار الذى إصطفاه على العالمين ووهبه أرض الميعاد الجديدة «أمريكا» الأرض المقدسة التى أعدها الرب لشعبه المختار.

وأدى تبنى المهاجرين الأمريكيين البيض لعقيدة الشعب المختار وأرض الميعاد وفقاً للنموذج التوراتى إلى نزعة عنصرية شديدة تأصلت داخل الشخصية الأمريكية ودفعتها إلى إبادة الهنود الحمر وإستعباد الزنوج السود

ولذلك فقد كان التاريخ الأمريكى إبان مرحلة التكوين الإستعمارية ملحمة عنصرية تم خلالها إبادة الهنود الحمر وإستعباد الزنوج السود.

فبالنسبة للهنود الحمر

سكان أمريكا الأصليين الذين كانوا يعيشون فى هذه البلاد عندما نزل المستوطنون الأوربيون البيض فى جيمس تاون ١٦٠٧ فقد تعرضوا طوال الفترة الإستعمارية لعملية إبادة من جانب البيض الذين أطلقوا لنزوعهم العنصرى العنان فجردوا الهنود الحمر من طبيعتهم البشرية واعتبروهم مجرد أشياء يجب إزاحتها وأباحوا لأنفسهم إبادتهم بدعوى أنهم شعب همجى حقير ليس له حضارة وأنهم برابرة ملحدون لا يجوز لهم إمتلاك الأرض التى يعيشون عليها فالأرض هى ملك لله وقد وهبها للمؤمنين ولذلك فمن حق المسيحيين فى كل مكان طرد غير المسيحيين من أرضهم والإستيلاء عليها.

ومن ثم شن المهاجرون البيض حرب إبادة ضد الهنود الحمر واستخدموا فيها كل الوسائل ومكنهم تفوقهم العسكرى باستخدامهم للبندقية على دحر وإبادة الهنود الذين كانوا يحاربون بالسهم والقوس كما ساعدهم تفوقهم التكنولوجى على نشر الأمراض الوبائية خاصة الجدرى بين الهنود الحمر وكانت محصلة هذه الحرب أن الهنود الذين كان عددهم فى منطقة الساحل الشرقى يصل فى بداية المراحل الإستعمارية ١٦٠٧ إلى أكثر من ٨٠٠ ألف نسمة فى أقل تقديرات لعلماء الأنثروبولوجيا إنخفض عددهم بفعل هذه الإبادة فى نهاية المرحلة الإستعمارية ١٧٦٣ إلى أقل من ١٠٠ ألف نسمة كان ثمن بقائهم أحياء هو الوقوع فى أسر العبودية أو العيش عيشة بائسة فى معازل فقيرة أو التحول إلى مجرد مزارعين أجراء وعمال باليومية وخدم بالمنازل فى ظل نظام عنصرى يحرم الإختلاط بين الهنود الحمر وسادتهم من البيض.

وقد حاول الأمريكيون تبرير جريمة إبادة الهنود الحمر وإلقاء

مسئوليتها على وحشية الهنود الحمر الذين كان عددهم يقل عن المليون نسمة ويعيشون فى مساحة تبلغ ٢ مليون كم^2 أى ما يساوى مساحة قارة أوربا وهى مساحة كانت كافية لإستيعاب المهاجرين البيض إلى جانب الهنود لكن الهنود الحمر كانوا - كما تقول الدعاية الأمريكية - برابرة متوحشين رفضوا قبول المستوطنين الأوربيين وشنوا عليهم حرباً وحشية أدت فى النهاية إلى إنهزام الهنود وإبادتهم.

لكن هذا التبرير الأمريكى المزيف لا يصمد أمام حقائق التاريخ الأمريكى الثابتة فلم يكن الهنود الحمر برابرة متوحشين كما يزعمون بل كانوا شعباً مسالماً وديعاً إستقبل المستوطنين البيض فى بادئ الأمر إستقبالاً طيباً وأقام معهم علاقات مودة وصداقة وتعاون وتعايش معهم سليماً ورحب بعلاقات التبادل التجارى لكن الأوربيين البيض سرعان ما فرضوا الصراع على الهنود الحمر عندما تحولوا لإستيطان أراضى الهنود والإستيلاء عليها وطردهم بالقوة إعتماداً على غطرسة القوة التى جاءتهم من تقدم أسلحتهم على أسلحة الهنود.

وفى أتون هذا الصراع الدامى الذى فرضه البيض تلبية لأطماعهم فى الإستيلاء على الأرض ظل الهنود يتطلعون بإستمرار إلى التعايش السلمى مع البيض لكن المستوطنين البيض كانوا يرفضون بإستمرار محاولات الهنود السلمية ويفرضون عليهم الحرب والتاريخ الأمريكى حافل بالشواهد والحقائق والوقائع التى تثبت ذلك.

ويكفى لذلك أن نذكر تجربة التعايش السلمى للهنود فى ولاية بنسلفانيا فهذه الولاية التى أسسها وليم بن وجماعة الكويكرز ١٦٨٢ . أخذت بمبدأ التعايش السلمى فبادر الهنود للتجمع فى هذه الولاية وتعاونوا مع المستوطنين البيض وعاشوا معهم فى سلام وأخذت بعض جماعاتهم فى محاكاة حضارة الرجل الأبيض واستمر ذلك لأكثر من ثلاثين عاماً عندما تحولت بنسلفانيا على سياسة التعايش السلمى بعد وفاة وليم بن ١٧١٢ وقامت بطرد الهنود من أراضيها.

أما بالنسبة للزنوج السود

فقد تعرضوا بدورهم لإضطهاد عنصرى بشع فقد كان الإنجليز البيض شديدى العنصرية وينظرون إلى اللون الأسود كتجسيدا للشر والقبح وكمرادف للهمجية والبوهيمية وينظرون إلى الحضارات الأفريقية على أنها همجية ومتخلفة.

وقد بدأ إسترقاق الزنوج الأفارقة فى أمريكا بوصول أول فوج من العبيد من أفريقيا إلى جيمس تاون فى عام ١٦١٩ لكن إسترقاق الزنوج ظل محدوداً فى المستعمرات الأمريكية طوال القرن السابع عشر فلم يزد عدد العبيد عن ٤ آلاف عبد حتى عام ١٦٧٥ ثم بدأ التوسع فى تجارة الرقيق خاصة بعد إحتكار بريطانيا لتجارة الرقيق فى أفريقيا منذ عام ١٦٩٧ فزاد الإقبال على إستخدام الزنوج السود والأرقاء وارتفعت أعدادهم خلال القرن الثامن عشر حتى وصلت فى نهاية الفترة الإستعمارية إلى نحو نصف مليون عبد كانوا يشكلون نحو ٢٠٪ من السكان وأصبح الرق مؤسسة ذات شأن فى التجربة الأمريكية وتم وضع قوانين للأرقاء السود تحول بموجبها الزنوج من بشر إلى ممتلكات وتم تجريدهم من آدميتهم وسلبت جميع حقوقهم الإنسانية وتحولوا إلى مجرد متاع وتم إستغلالهم بشكل بشع أكثر مما تستغل الماشية وحرموا من حق الملكية وحق التعليم ومن الإشتغال بالتجارة أو الشهادة أمام المحاكم أو المشاركة فى الحياة السياسية أو السفر بدون تصريح ولم يعترف لهم بحقهم الإنسانى فى الإرتباط الأسرى وانسحبت العبودية إلى أطفالهم وفرضت عليهم التفرقة العنصرية حتى عند الصلاة داخل الكنائس.

وصدرت قوانين فى كثير من المستعمرات تحرم ملاّك العبيد من تحرير أرقائهم وتم إستخدام الديانة المسيحية لترويض العبيد والقبول بالعبودية طمعاً فى المحد الذى يناله العبد الذى يُطيع سيده ولا يفسد إيمانه التطلع للحصول على الحرية فتم تربية العبيد وفقاً لقيم الخضوع والخنوع والطاعة والزهد والتقشف لكن ذلك لم يمنع من قيام العبيد بالعديد من الثورات

وحركات العصيان والتمرد فى كثير من الولايات على الرغم من العقوبات الوحشية والتشريعات القمعية التى كانوا يتعرضون لها جزاء التمرد أو الثورة.

والخلاصة. أن ظاهرة العنصرية ذات الجذور التوراتية وإعتقاد الأمريكيين بأنهم شعب الله المختار الذى وهبهم الرب أرض الميعاد الجديدة «أمريكا» قد تأصلت فى الشخصية الأمريكية فى مرحلة التكوين خلال الفترة الإستعمارية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وتجلت بوضوح فى إبادة الأمريكيين للهنود الحمر وإستعبادهم للزنوج السود.

وصاحب هذه السمات العنصرية فى الشخصية الأمريكية إحساس طاغ فى الشخصية الأمريكية بغطرسة القوة من جراء تفوقهم العسكرى والتكنولوجى على الهنود الحمر والزنوج السود.

٢ـ ظاهرة الأقلية الذكية والجمهور الوضيع

قلنا إن مجتمع المهاجرين الأوروبيين للذين إستوطنوا الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية كان خليطاً غير متجانس خرج من رحم قادة أوروبا بكل تناقضاتها وتنوعها ولم يقتصر هذا التنوع على الأصول القومية أو المعتقدات الدينية بل إمتد إلى الأصول الإجتماعية والأوضاع الطبقية فكان مجتمع المهاجرين الأوربيين خليطاً من الطبقات والشرائح الإجتماعية المختلفة من أعلاها إلى أدناها وكان التمييز بينها فى المكانة الإجتماعية موجوداً بإستمرار طوال فترة التكوين الإستعمارية فالمستعمرات البريطانية التى تأسست منذ بداية القرن السابع عشر تحت سيادة التاج البريطانى كونتها شركات إستعمارية من رجال الأعمال ورجال البلاط ومنحت الطبقة الراقية من اللوردات والنبلاء إقطاعيات كبيرة من الأرض وتصل إلى عشرات الآلاف من الهكتارات فكان ذلك نواة المجتمع الإقطاعى الأرستقراطى الذى نقله الإنجليز إلى العالم الجديد حيث إستحوذت بعض الأسر الأرستقراطية مثل أسر فيرفاكس ورايت وبلتيمور وبن وجرانيفيل على معظم الثروة الزراعية وأدارتها بطريقة إقطاعية ومارست حياة الطبقة الأرستقراطية بما فيها من إستعلاء وترف وفخامة وتبذير وتمتعت بكل الإمتيازات وسيطرت على الحياة السياسية والإجتماعية واحتكرت السلطة وسيطرت على إدارة المستعمرات أو الولايات.

كما هاجر تحت وطأة الفقر عناصر من الطبقات الأوربية الفقيرة فكان المسرحون من السجون البريطانية والمدينون العاجزون عن الوفاء بديونهم والفقراء الذين يعانون الفاقة يهاجرون إلى العالم الجديد ولكنهم كانوا يقعون فريسة فى أيدى الأفاقين ورجال الأعمال الذين كانوا يتعاقدون معهم على نقلهم من أوروبا إلى أمريكا نظير إلتزامهم بالعمل سخرة لعدد من السنين يتراوح بين ٣ و ٧ سنوات لتسديد مصاريف السفر وكانت حياة هؤلاء الفقراء من العمال المتعاقدين حياة شاقة وعسيرة فهم يعملون كخدم أو فى المهن اليدوية أو الزراعية الشاقة وحتى بعدما كانوا يتحررون من الخدمة الإجبارية كانت أوضاعهم تظل سيئة فهم إما يظلون فى المدن كطبقة بروليتارية معدمة تشتغل بأعمال الخدمة أو الأعمال اليدوية الشاقة وإما يتجهون غرباً إلى مناطق الحدود حيث يمكنهم إمتلاك مساحات صغيرة من الأرض يقومون بزراعتها فى ظل ظروف شاقة.

وإلى جانب هاتين الطبقتين العليا والدنيا هاجر بعض عناصر الطبقة الوسطى من التجار والمزارعين ورجال الدين وصغار الضباط والموظفين والمهنيين.

والحرفيين واشتغلت هذه الطبقة بالأعمال المهنية كالطب والمحاماة أو الأعمال الحرفية كالميكانيكا أو بأعمال التجارة أو الزراعة أو أعمال البحر فكانوا يشكلون عماد الطبقة الوسطى الأمريكية.

وأثرت طبيعة الحياة الأمريكية بإمكاناتها الواسعة وثرواتها الهائلة على هذا التكوين الطبقى فلم تعرف الحياة الأمريكية كيانا طبقياً صارماً كما فى أوروبا بل كانت إمكانات الحراك الإجتماعى ولذلك ظهرت طبقة أرستقراطية جديدة تكونت من الذين جنوا ثروات كبيرة من تجارة العبيد وتجارة الفراء والأعمال البحرية والمضاربة على الأرض وتمكنت هذه الطبقة الجديدة من إمتلاك ضياع كبيرة ومصارف مالية وبيوت تجارة كبيرة أمثال عائلات

هاريسون وكارتر وموريس وهانكوك وراندولف وواشنطن لكن إمكانات الحراك الإجتماعى لم يكن معناه تحقيق نوع من المساواة فقد ظلت الحياة الأمريكية شديدة الطبقة حيث استأثرت الأقلية الأرستقراطية بالامتيازات الإجتماعية والإقتصادية التى ظفرت بمساحات كبيرة من الأرض كمنح أو إقطاعيات دون مقابل كما كانت تكره أولئك الذين كونوا الثروات من التجارة والمضاريات فى الوقت الذى لم يتح فيه للفقراء فرصة لتولى الوظائف أو المشاركة فى الحياة السياسية وكانت نسبة الحراك الإجتماعى بين طبقة العامة ضعيفة ولم ينتقل منهم إلى وضع طبقى أعلى سوى أعداد قليلة. ومن ثم كان الصراع الطبقى بين الفقراء والأغنياء حاداً مما أدى إلى قيام ثورات كثيرة من جانب المعدمين ضد الأغنياء وكان أشهرها ثورة بيكون فى فرجينيا عام ١٦٧٦ حيث قاد بيكون جماعات من الخدم والعمال المتعاقدين وأصحاب المزارع الصغيرة على الحدود وغيرهم ممن لم يكن لهم صوت إنتخابى ويعانون الضرائب الباهظة والحرمان من الوظائف واجتاح بهم عاصمة الولاية جيمس تاون من أجل الدفاع عن حقوق صغار المزارعين والعمال لكن الأرستقراطية الغنية بقيادة الحاكم بيركلى تمكنت من القضاء على هذا التمرد بعد موت بيكون وقامت بشنق الثوار.

وظل الصراع الطبقى بين الفقراء والأغنياء غير متكافئ فقد سيطرت الأرستقراطية بجناحيها القديم والجديد على مصادر القوة ورغم أن عددهم لم يكن يتجاوز ٣٪ من السكان فقد سيطروا سيطرة كاملة على المجالس التنفيذية والتشريعية وعلى الوظائف المهمة فى المستعمرات وجضوا مصالحهم ودافعوا عن نفوذهم من خلال الدساتير التى أصدرتها الولايات لحماية الحقوق الفردية للإنسان فركزت هذه الدساتير إهتمامها بالدرجة الأولى على مبدأ حماية الملكية الخاصة كهدف رئيسى من أهداف الميثاق الإجتماعى واعتبرت أنه بغير حقوق الملكية تصبح الحقوق الشخصية مُفرّغة

من مضامينها الحقيقية ولذلك وضعت حقوق الملكية فى مرتبة القداسة التى تمثلها القوانين الإلهية التى لا يمكن للبشر المساس بها واعتبرت الملكية أساس حرية الأمريكى وجعلت هدف الدساتير والقوانين الأولى حماية حقوق الملكية الخاصة. وأدى ذلك إلى صياغة الديموقراطية الأمريكية فى مرحلة التكوين الإستعمارية صياغة خاصة تقوم على أساس إستعباد مبدأ الإقتراع العام بدعوى أنه يعرض حقوق الملكية الخاصة للخطر لذلك أستُبعد الفقراء والنساء والعبيد من حتى الإقتراع وقصر حق الإنتخاب على الذكور الذين لهم نصاب مُحدد من الملكية ينتخبون الأغنى منهم ليعبروا عنهم ويدافعوا عن مصالحهم وامتيازاتهم.

٣ـ ظاهرة البراجماتية الأمريكية «النفعية»

البراجماتية مذهب فلسفى إعتنقه الأمريكيون وشاع بينهم وقامت على أساسه حياتهم وهو كأى مذهب فلسفى يدور حول رؤية الطبيعة البشرية التى إختلف حولها الفكر الإنسانى منذ نشأته المبكرة فالبعض رأى الإنسان كائناً فردى النزعة والبعض الآخر رآه كائناً إجتماعى النزعة والبعض نظر إلى الطبيعة البشرية على أنها خيرّة فى جوهارها والبعض الآخر. رأى أن طبيعة شر فيها متأصلة وكل فريق ينحاز لوجهة نظره ويعتبرها نظرية مُطلقة وفطرية ويزعم أنها تتفق مع النظام الطبيعى والفطرة البشرية مع أن المسألة بطبيعتها خلافية ولا يمكن لأحد الزعم بحسمها.

ويبدو أن هناك عوامل كثيرة متشابكة ومعقدة شكلت وجهة نظر الأمريكى أو فلسفة فالإضطهاد الدينى والسياسى الذى تعرض له المهاجرون الأوربيون والصراع الحاد الذى خاضه الرواد الأوائل من المستوطنين البيض فى مواجهة الهنود الحمر والسيطرة على الطبيعة والإستئثار بخبراتها أزكى فى الشخصية الأمريكية سمتين رئيسيتين:

السمة الأولى. تمجيد الروح الفردية.

السمة الثانية. هى تعظيم الثروة وإعلاء شأن المادة وهاتان السمتان يطلق عليهما إسم الفلسفة البراجماتية وهى فلسفة تقوم على نبذ النظرة

المتكاملة الحالمة إلى الطبيعة البشرية بإعتبارها طبيعة خيرة وإستبدالها بنظرة أخرى واقعية تقوم على أساس أن كل إنسان يعمل من أجل مصلحته الفردية وتحقيق المكسب المادى. فالطبيعة البشرية تتسم بالأنانية المفرطة والسلوك الإنسانى مدفوع المنفعة الشخصية.

ولذلك ترى الفلسفة البراجماتية أن النظر إلى الطبيعة البشرية بغير ذلك هو محض يوتوبيا خيالية حالمة لأنه لا يمكن تعديل الطبيعة البشرية فى جوهرها فتبقى أعمق أطوار الطبيعة البشرية دون تبديل ولا يمكن تعديلها بأى وسيلة أو إعادة صياغتها بأى طريق لأن الإنسان لا يتغير فى نزعاته الأساسية وليس فى وسع الدين أو التربية أن تغير فى هذه الطبيعة الفطرية ولابد من أخذ الناس على طبيعتهم.

ولذلك تخلص الفلسفة البراجماتية إلى أن أنانية الإنسان مثلها مثل الجاذبية هى إحدى حقائق العالم التى لا يمكن تجاهلها وأن العواطف الأنانية تسيطر على طبيعتنا وهى مزروعة فى كياننا من أجل سلامتنا وأن هذا القانون هو القانون الأعظم فى محافظة الإنسان على ذاته. كما تخلص إلى أن أقوى عواطف البشر هى المال والطموح والتنافس ولذلك فالحقيقة الحاسمة فى الحياة الإنسانية هى إختلاف المصالح والصراع المستمر بين البشر لتحقيق الطموح وجمع المال والإنتصار فى التنافس ولذلك فالمجتمع البراجماتى يعظم من شأن الثروة ويبجلها ويجعل السعى إليها والصراع من أجلها هو غاية كل إنسان ويتم تقييم الإنسان على قدر ما يملكه من ثروات فالإنسان الذى يملك المال بصرف النظر عن كيفية إكتسابه يصبح ذا شأن ومحل إحترام وتقدير أما المعوز الذى لا يملك مالا فهو مجرد شخص تافه وعرضة للتقريع دائماً وأبداً.

ولذلك لا تستهجن البراجماتية الأمريكية الوسائل غير الأخلاقية التى يستخدمها الناس للحصول على الثروة وتحقيق مصالحهم وترى من الطبيعى أن يعيش قطاع من الناس على عمل قطاع آخر وأن يستغل الأقوياء الضعفاء وأنه من الطبيعى فى ضوء ذلك أن يتمكن عدد قليل من الرجال من جمع ثروة هائلة على حساب إزدياد الفقر لدى الأغلبية.

تفصيل بعض ما حدث من المذابح

(١) هيروشيما

٦ أغسطس ١٩٤٥

ألقيت أول قنبلة ذرية فى التاريخ على مدينة هيروشيما، وقد وصفها أحد اليابانيين بما يلى.

«فجأة، ظهر فى السماء ضياء شديدة، رافقة إهتزاز غير طبيعى لحقت به موجة من الحرارة الخافقة والرياح العاصفة التى كانت تجتاح كل ما تجده أمامها، وفى ثوان قليلة إحترق الآلاف من الناس الذين كانوا يسيرون فى الشوارع أو يجلسون فى الحدائق العامة. كثيرون قتلوا بالحرارة الهائلة التى إنتشرت فى كل مكان. كل ما كان قائماً فى منطقة الإنفجار من جدران ومنازل ومصانع قد سُحق سحقاً وأبيد إبادة تامة. واندفع فتات هذه الأشياء نحو الفضاء فى دّوامة رهيبة. أما الحافلات الكهربائية والقطارات فقد إرتفعت فى السماء كأنها لعب أطفال، واختفت الأشجار فى اللهب لقد إنهار كل شئ فى دائرة قطرها ١٠ كيلو مترات أما الذين كتبت لهم النجاة فقد ظهرت عليهم بوادر غريبة قيئ وإسهال بلغا درجة غير معهودة، رافقتها حالات نزيف من الفم، لكن هؤلاء ما لبثوا أن ماتوا بعد ٢٠ أو ٣٠ يوماً من شدة الآلام، وفى المساء، إنكمشت ألسنة نيران وزالت إذ لم يبق ثمة شئ تأكله. لقد كانت هنا مدينة إسمها هيروشيما».

قدّرت قوة هذه القنبلة بنحو ٢٠,٠٠٠ طن من مادة ت. ن. ت الناسفة وبلغ عدد ضحاياها ٩١,٠٠٠ قتيل و ١٠,٠٠٠ بين جريح ومفقود.

وفى يوم ٩ أغسطس. ألقيت القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناجازاكى. فذهب ضحيتها ٧٣,٨٨٤ قتيلاً و ٦٠,٠٠٠ بين جريح ومفقود.

(٢) مدينة درسدن الألمانية

فى ١٣ فبراير ١٩٤٥

قام الجيش الأمريكى بقصف مدينة درسدن عاصمة سكسونيا على نهر الألب وهى مركز صناعى هام، وميناء داخلى كبير، أسفر القصف عن تدمير نحو ثلاثة أرباع المدينة ومقتل ٣٢,٠٠٠ مدنى.

ومن معالمها التى دُمرت. قصر ومتحف تسفنجر، والهوفكرشة (كنيسة البهو) والكاتدرائية، وبعد إحتلالها أخذت روسيا معظم التحف الفنية الموجودة فى دهاليز المتحف، ومنها لوحة روفائييل «سستاين ماردونا»

(٣) الحرب الكورية

٢٥ يونيو ١٩٥٠

إندلعت الحرب بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية بهجوم خمس فرق شمالية خط العرض ٣٨ (خط التقسيم) وغطت فى ثلاث أيام ٦٠ كيلو متراً التى تفصلها عن سيول وحاصرت العاصمة. وهيأت للولايات المتحدة فرصة التدخل مباشرة فى قضايا القارة الأسيوية وتوكيد عزمها أمام العالم على إحتواء التوسع الشيوعى. وفى ٢٧ يونيو. أجاب مجلس الأمن مباشرة نداء سيول وأرسلت ١٦ دولة وحدات تحت راية منظمة الأمم المتحدة وفى نفس اليوم أرسل الرئيس ترومان إلى الجنرال «ماك آرثر» أن يطلق فى معركة جميع القوات الأمريكية، البرية، الجوية، البحرية، المرابطة فى اليابان، وبينما كانت الجيوش الحليفة تدحر الخصم وتجتاح أرضه.

وتبلغ حدود منشوريا وبدت القضية خاسرة بالنسبة للكوريين الشماليين. هجمت ٣٠ فرقة صينية على عرض الجبهة كله. وقفز النزاع، وركم الأحزان والدمار على «بلاد الصباح الهادئ، وعندما إقترح ماك آرثر فى إبريل ١٩٥١، إقحام العزم بإستعمال السلاح الذرى ضد الصينيين. إصطدم بمعارضة ترومان الرسمية الذى نحّاه عن قيادته.

ودامت الحرب ثلاثة أعوام، وكلفت ٨ ملايين نفس بشرية وخسائر مادية عظيمة.. كان النصيب الأكبر منها لكوريا الشمالية.

(٤) فيتنام
نقطة بيضاء وسط عاصفة الظلام

على مدى عشرين عاماً على وجه التقريب، شنت الولايات المتحدة بشكل مباشر أو عن طريق وكلائها، حرباً فى فيتنام، وراح ضحية تلك الحرب خمسة وأربعون ألفاً من الأمريكيين، و ٩٥ ألفاً من مختلف القوميات فى الجيش الإستعمارى الفرنسى السابق، أما سكان فيتنام فلا يُعرف عدد قتلاهم إذ تتراوح التخمينات ما بين (مليون ومليونى نسمة) ولم يعرف سوى عدد محدود جداً من الناس، الأسباب الحقيقية والطريقة التى ساعدت بها أربع حكومات متتالية: حكومات الرؤساء: ترومان وأيزنهاورو وكنيدى وجونسون، فى الإبقاء على تلك الحرب التى لم تتوقف فى فيتنام، وهى الحرب التى واصلتها حكومة الرئيس نيكسون.

ففى منتصف عام ١٩٦٧، إتخذ «روبرت ماكنمارا» «وزير الدفاع الأمريكى» قرارا قد يتضح أنه أهم القرارات التى أصدرها طوال السنوات السبع التى قضاها فى البنتاجون فقد جمع ما عُرف منذ ذلك الحين بوثائق البنتاجون وهى عبارة عن تاريخ ضخم غاية فى السرية لدور الولايات المتحدة فى فيتنام، واستغرق هذا العمل عاماً ونصف العام صفحة وكانت الحصيلة حوالى ٣٠٠٠ صفحة من السرد التاريخى، وأكثر من ٤٠٠٠ صفحة من الوثائق الملحقة، يقدر مجموعها الكلى بحوالى ٢,٥ مليون كلمة. وتغطى المجلدات السبع والأربعون تورط أمريكا فى فيتنام منذ الحرب العالمية الثانية،

حتى مايو ١٩٦٨، وهو الشهر الذى بدأت فيه محادثات السلام فى باريس، بعد أن وضع الرئيس جونسون حداً لزيادة العمليات الحربية وكشف عن رغبته فى عدم إعادة ترشيح نفسه.

وتوصل المؤرخون إلى عديد من الإستنتاجات العامة والنتائج الخاصة تتلخص فيما يلى:

١) إن قرار حكومة ترومان بتقديم العون العسكرى لفرنسا فى حربها الإستعمارية ضد فيتنام التى يقودها الشيوعيين قد «ورط الولايات المتحدة مباشرة» فى فيتنام «وحدد» مجرى السياسة الأمريكية.

٢) إن قرار حكومة إيزنها ويإنقاذ جنوب فيتنام المحتاج إلى الحماية من سيطرة شيوعية، ومحاولة الحكومة تخريب النظام الشيوعى الجديد فى شمال فيتنام، جعل للحكومة «دورا مباشراً فى القضاء التام على إتفاق جنيف» حول فيتنام لعام ١٩٥٤.

٣) إن حكومة كيندى، رغم أنها لم تتورط فى قرارات التصعيد الأساسية نتيجة لوفاة رئيسها، قد حولت سياسة «المغامرة المحدودة المخاطر» التى ورثتها إلى «تعهد عرفى» واجه الرئيس نكسون بالاختيار بين مزيد من الحرب أو الإنسحاب.

٤) إن حكومة جونسون، رغم رفض رئيسها وتردده فى إتخاذ القرارات النهائية، قد وُسِعَت الحرب الخفية ضد شمال فيتنام، وبدأت تخطط فى ربيع ١٩٦٤ - لشن حرب صريحة، وذلك قبل أن تكشف الحكومة علناً عن عمق تورطها وخوفها من الهزيمة بعام كامل.

إن حملة الضغط العسكرى السرى المتزايد خلال عام ١٩٦٤ والبرنامج الموسع للإغارة على شمال فيتنام فى عام ١٩٦٥ قد بدأت رغم أقتناع أجهزة المخابرات الحكومية بأن تلك الإجراءات لن تدفع «هانوى» إلى وقف مساندتها العصيان الفيتكونج فى الجنوب، وبأن الغارات ستنتهى إلى أن

تصبح غير فعّالة من الناحية العسكرية خلال شهور قليلة.

إن هذه الحكومات الأربع المتتالية قد خلقت المأزق السياسى والعسكرى والنفسى الأمريكى فى فيتنام، وفى الغالب بشكل أعمق مما أدركته كل منها فى حينه وذلك عن طريق الشحن الواسع النطاق للمعدات العسكرية للفرنسى فى عام ١٩٥٠، وعن طريق عمليات التخريب والإرهاب العسكرية ضد شمال فيتنام التى بدأت عام ١٩٥٤، وعن طريق التحركات التى شجعت وحرضت على الإطاحة بالرئيس «نجودين ديم» فى جنوب فيتنام عام ١٩٦٣ وعن طريق المخططات والتعهدات والتهديدات بمزيد من التحرك والتى رأت النور فى أحداث خليج، تونكين فى أغسطس ١٩٦٤، وعن طريق الإهتمام بإعداد الرأى العام لسنوات مقبلة من الحرب الصريحة، وعن طريق تقدير ١٩٦٥ حيث تدخلت الطائرات والجيوش علناً فى الحرب بما حال دون تحقيق النتيجة المرغوب فيها سواء بالنسبة لتهدئة داخل جنوب فيتنام أم تقدم المفاوضات مع شمال فيتنام.

إن قصة البنتاحون والوثائق الملحقة بها. إنما تكشف أنه بمجرد أن حدد الهدف الرئيسى للسياسة والمناقشات الداخلية الدائرة حول فيتنام كيفية تحقيق تلك الأهداف بدلاً من أن تتناول الإتجاه الرئيسى لتلك السياسة.

وتشير الدراسة إلى أن الحكومة الأمريكية منذ عهد ترومان ومن تلاه شعرت بضرورة إتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحيلولة دون سيطرة الشيوعيون على كل فيتنام، وكتبرير لسياستها، كررت الحكومة نظرية الدومينو، التى تقول إنه إذا سقطت جنوب فيتنام فستتبعها بالضرورة بلدان أخرى، فى أشكال مختلفة لحوالى عشرين عاماً. وتكشف دراسة البنتاجون، أن الحكومة، وخاصة فى فترة الستينات كانت على ثقة من أن القوة الأمريكية أو حتى التهديد باستخدامها، سيمكنها من التحكم فى الحرب.

لكن الدراسة تكشف أن كبار الموظفين فى حكومة جونسون قد أقلقتهم

الأخطار المحتملة لتدخل شيوعى صينى، وشعروا بالحاجة إلى ضبط النفس لتجنب إستفزاز بكين أو الإتحاد السوفيتى إلى التورط فى الحرب.

وكما بدأ بعض صانعى السياسة يتساءلون حول فاعلية الجهد الأمريكى فى منتصف عام ١٩٦٧، يكشف التقرير عن أن وثائقهم السياسية بدأت تسعى للحدّ من الإستراتيجيات العسكرية فى البر والجو، بالإضافة إلى القلق حول تأثير الحرب على المجتمع الأمريكى وقد كتب جون ماكناتون نائب وزير الدفاع فى مذكرة إلى ماكنمارا فى أوائل مايو ١٩٦٧ يقول.

«هناك شعور قوى ومتزايد بأن الحكومة قد فقدت عقلها».

ويواصل مستر ماكناتون الذى كان من كبار المخططين للحرب الجوية فى شمال فيتنام، كلامه ليقول.

«وهذا الشعور هو أننا نحاول فرض تصور أمريكى ما على شعوب بعيدة لا نستطيع فهمها (كما أننا لم نعد نستطيع فهم الجيل الشاب فى داخل بلادنا).م

وأننا نسير بالأمور إلى أبعاد غير مقبولة، ويرتبط بهذا الشعور تزايد الإستقطاب الذى يتم فى الولايات المتحدة بما يحمله من بذور أسوأ إنقسام لشعبنا منذ أكثر من قرن».

وهكذا إستطاع الشعب الفيتنامى الفقير من إذلال أقوى دولة فى العالم فى القرن العشرين.. فلابد لنا أن ندرس التجربة الفيتنامية دراسة عميقة ونستخلص الدروس من هذه التجربة القاسية والخصبة.

(٥) العدوان الأمريكى على الجماهيرية الليبية

١٥ إبريل ١٩٨٦ م

مساء الإثنين ١٤ إبريل بدأت عملية «ألدورادو» إذ إنطلقت من بريطانيا مجموعة جوية قتالية قوامها ٢٨ طائرة من طراز «ك. س. ١٠» و «ك. س. ١٣٥ و ٥ طائرات تشويش إلكترونى من طراز أى إف ١١١ و ٢٤ قاذفة من طراز ١١١ محلقة على إرتفاع ٢٠,٠٠٠ قدم، متجهة نحو أهدافها فى الجماهيرية العربية الليبية وفى هذه الأثناء كانت حاملة الطائرات «كورال سى» و «أمريكا» تتجهان نحو خليج سرت وعلى سطحها ١٥٥ طائرة حربية من مختلف الأنواع.

أما التنسيق بين المجموعة القتالية المنطلقة من بريطانيا والأسطول السادس فكان يتم بواسطة القاعدة الأمريكية الموجودة فى جزيرة «لامبيدوسا» الإيطالية وفى الساعة الثانية من صباح الثلاثاء ١٥ إبريل بدأت الطائرات الأمريكية التى جاءت من بريطانيا وتلك التى أقلعت من حاملات الطائرات تصب أطناناً من القنابل على أهداف فى مدينتى طرابلس وبنغازى يفترض أن العقيد القزافى وعائلته يقيمون فى إحداها وذلك بغرض إغتياله، ولم يتأخر الردّ الليبى وتحاشياً للصواريخ المضادة للرادارات أطلقت رشقات من الصواريخ سام ٢ وسام ٣ وسام ٦ وسام ٨ بدون توجيه من الرادارات كما ساهمت مدافع «شيلكا» بالتصدى للطائرات ووصف قائد الأسطول السادس

حائط الصواريخ الليبى الذى واجه الطيران الأمريكى بأنه من أكثف حيطان الصواريخ فى العالم، وقد ساعدت ضراوة المقاومة الأرضية فى التشويش على الطائرات المغيرة حيث أرغمتها على إلقاء حمولتها بعيداً عن أهدافها الأصلية والتى بلغ وزنها نحو ١٠٠ طن من مختلف القنابل والقذائف مما جعل نتائج الضربة العسكرية تقتصر فى الجانب الليبى على المدنيين فقط إذ أدت إلى إستشهاد ٣٧ شخصاً وجرح ١٣ شخص من بينهم عدداً لا بأس به من الأطفال الأبرياء.

أحداث ١١ سبتمبر.. وحرب السنوات العشر

«من كتاب سفر الموت»

«حرب السنوات العشر، أو الحرب المفتوحة مكاناً وزماناً والتعبير ليس من عندي، فقد كانت هذه هى التقديرات عندما حصل بوش. وبعد ثمانية أيام من أحداث ١١ سبتمبر. على إذن بالحرب. حينذاك جاء تصريحات رسمية بأن الحرب قد تمتد من عامين إلى عشرة، ومن أفغانستان إلى مواقع أخرى.

وبينما كان ذلك هو تقدير عناصر فى الإدارة الأمريكية فإنه قد أمكن تصدير الفكرة للرأى العام صاحب الأصوات فى الإنتخابات بالولايات المتحدة، ومن ثم جاءت إستقصاءات الرأى بعد عام من الحدث الكبير لتقول إن ٩١٪ من الأمريكيين يرون أن الخطر رقم واحد الذى يهدد الولايات المتحدة ولعشر سنوات قادمة هو الإرهاب.

المدى الزمنى مفتوح والمدى الجغرافى كذلك، وهذه هى الحرب التى لم تضع أوزارها فى أفغانستان تنتقل لمرحلتها الثانية فى الشرق الأوسط عبر حلقة ضعيفة أخرى هى العراق التى جر حصارها وإضعافها لمدة تزيد على عشر سنوات.

ولم يكن العراق مُستبعداً منذ اللحظة الأولى. فوفقاً لمداولات مجلس

الأمن القومى الأمريكى فى جلساته الأولى التى بحثت الرّد على ١١ سبتمبر طرح وزير الدفاع الأمريكى رامسفيلد إقتراحاً بالهجوم على العراق فى نفس توقيت الهجوم على أفغانستان وهو الخيار الذى كانت وزارة الدفاع قد درسته وأعدت له قبل ذلك.

وكان إقتراح رامسفيلد إمتداداً لحديث ديك تشينى نائب الرئيسى والذى كان يرى أن التركيز على بن لادن أو تنظيم القاعدة لا يكفى. وإنما الأهم هى «الدول والنظم والمؤسسات السياسية التى ترعى الإرهاب».

وحينذاك حسم بوش القضية» أفغانستان أولاً. فإذا نجحنا فى ذلك ننتقل للمرحلة الثانية».

وهكذا جاءت المرحلة الثانية: العراق كمقدمة لدول سبع عَدَّتها تقارير وزارة الخارجية راعية للإرهاب، بينها أربع دول عربية هى: سوريا، ليبيا، السودان، العراق، إضافة لدول غير عربية هى: كوبا، وإيران، وكوريا الشمالية»

ولكن بين المرحلتين الأولى والثانية جرت مياه كثيرة فى أنهار السياسة الأمريكية والدولية. بعضها يتعلق بتهيئة المسرح، وبعضها يتعلق بعقد ما نشهده من دراما.. بعضها يتعلق بتهيئة المسرح الأمريكى، أو العالمى (عداء أو تحالف).. رغم أهمية ذلك فقد كان الأكثر إثارة وخطورة هو الإعلان عن أهداف جديدة عدوانية بطبيعتها وهى أهداف حددتها «وثيقة إستراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» التى أعلنها بوش يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢ وفيها يقول «إن الولايات المتحدة لن تسمح مطلقاً لأى طرف دولى آخر بأن يتحدى تفوقها العسكرى بمثل ما كانت الحال خلال الحرب الباردة».. وتضيف «إنه من الآن فصاعداً لن تنتظر الولايات المتحدة قدوم التهديد إليها ولو كمجرد إحتمال وإنما هى التى ستذهب إليه لضربه عسكرياً بشكل إستباقى».

لم تعد القضية إذن هى الإرهاب، ولكن إدخال الآخرين إلى ثلاجة لا ينمون فيها عسكرياً أو إقتصادياً بما يناطح الولايات المتحدة.

ولم تعد القضية إذن هى العراق وإنما أى دولة تصبو لبناء قوة عسكرية قد تطول الولايات المتحدة ولو فى أطراف وجودها فى المحيطات الواسعة وعبر أساطيلها المنتشرة.

أصبحت القضية تحجيم العالم، وأصبح الوجود فى وسط آسيا وبناء ١٣ قاعدة عسكرية أمريكية بجوار الصين بعد سبتمبر ٢٠٠١ مواجهة مطلوبة وحرباً من تحت الماء ضد القوى النووية الأسيوية الأربع الصين - الهند - باكستان - روسيا.

بل إن الحديث عن البترول كهدف من ضرب العراق أو إحتلاله وتغيير النظام فيه أصبح منطقياً حيث يحتفظ العراق بنحو ١١٪ من إحتياطى البترول فى العالم وحيث يملك قوس النفط الذى يضم السعودية - العراق - الإمارات العربية - الكويت، حوالى ٥٥٪ من إحتياطى العالم وهو ما يلزم إن سيطرت عليه واشنطن ليكون أداة هيمنة على أدوات الحضارة فى العالم، وعلى كبار مستهلكى النفط الحاليين (أوروبا - اليابان) أو المرتقبين (الصين - الهند) هى الهيمنة إذن، والبداية المعلنة: ١١ سبتمبر.. أما نقطة التحول - والتى جرى لها الإعداد طويلاً ثم جرى الكشف عنها سريعاً بعد سبتمبر - فهى الإنتقال إلى الحالة الإمبراطورية، والتى بات اليمين الأمريكى يتحدث عنها بصراحة دون لبس حين يقول: «إن علينا أن نعترف بأن بلادنا أصبحت إمبراطورية بل الأفضل بين الإمبراطوريات التى عرفها العالم».

ويقول «إن الخيار العقلانى الوحيد لمواجهة تفشى العنف والتفكك والنمو السكانى بالعالم النامى هو العودة إلى الإمبرايالية ووضع تلك الدول التى تهدد أمن الغرب تحت الوصاية».

كانت البداية كما نعرف: ١١ سبتمبر. ورغم أن الولايات المتحدة لم تشهد مثيلاً لهذا اليوم منذ الإعتداء على بيرل هاربر عام ١٩٤١. فإن ما جرى لم يكن الأسوأ من حيث الخسائر البشرية أو المادية (٣٥٤٧ قتيلاً و ١٢٠٠ مليار دولار قيمة الدمار المباشر) لقد شهد العالم ما يفوق ذلك فى نفس الحقبة الزمنية، فمات أكثر من نصف المليون فى حرب عرقية فى رواندا، وقبل ذلك فى بلاد إفريقية أخرى، كما استشهد الآلاف من الفلسطينين برصاص الإرهاب الإسرائيلى قبل وبعد سبتمبر، وهو ما دعا أستاذاً أمريكياً مشهوراً وهو «نعوم تشومسكى» لأن يُصدر كتابه (١١/ ٩) ليقول إن أكبر إرهاب هو الإرهاب الأمريكى الذى تجلى فى نيكاراجوا عام ١٩٨٠ وسقط نتيجة له الآلاف، وفى السودان حيث جرى قصف مصنع للدواء يغذى نصف حاجيات السودان من الأدوية، وحيث جرى حصار العراق ومات «مليون» طفل نتيجة الحصار أيضاً فقد كشفت مجلة نيوزويك فى أغسطس ٢٠٠٢ عن موت ألف أفغانى بالإختناق فى أثناء الحرب وأثناء نقلهم فى حاويات مغلقة وجرت مواراتهم فى مدافن جماعية، مما جعل الأمم المتحدة تطلب تحقيقاً!.

لم تكن الخسائر (والتى تشير إليها وثيقة وزارة الخارجية الأمريكية فى نهاية هذا الكتاب) هى الأكبر إذن، لكنها الولايات المتحدة والمواطن الأمريكى الذى ظن دائماً أنه «فوق مستوى الخطر».. بل هى أيضاً المسافة بين الشمال والجنوب.. بين واشنطن وبغداد ومقديشيو ونيروبى حتى فى الجانب البشرى! وقعت الواقعة، فكانت بمثابة كرة اللهب التى تقاذفتها ثلاث دوائر.

- دائرة الداخل الأمريكى.
- دائرة الحلفاء المفترضين.
- دائرة الأعداء.

وكانت اللحظة مناسبة لكى تصبح الإدارة الأمريكية «الذئب.. الذئب!»

فيتنازل الداخل عما تعوده من حريات وإحترام للخصوصية ويتضامن الخارج لأن الشعار «معنا أو علينا» ويختفى الأعداء فاليد القوية كفيلة بسحق من يتصدى لها «كرة اللهب» ربطت بين الجميع وفرضت إيقاعاً للحركة، حتى إن سؤالاً حول الفاعل الحقيقى والأدلة التى تقدمها التحقيقات. هذا السؤال قد توارى بعد قليل.»

من كتاب سفر الموت

تأليف أ. محمود المراغى

نشر: دار الشروق.

عهد ترومان
عصر من الجرائم

تـرومـان

لقد تفوق ترومان على كل الشخصيات التى قامت بمذابح متعددة فهو لم يقوم بمذبحة واحدة ومنها القنبلة الذرية التى القاها على اليابان بل كان لجهوده الفضل الأول فى انشاء الكيان الإسرائيلى حتى أن حاخام إسرائيل الأكبر قال له لقد وضعك الله فى رحم أمك لتعيد إنشاء إسرائيل وهكذا فجريمة إنشاء إسرائيل ممتدة بمرور الزمان فكل جريمة ترتكبها إسرائيل وما أكثرها ستلعن الأجيال ترومان الذى خلق هذه النكبة.

ترومان يضغط على إنجلترا لتقبل اللاجئين اليهود فى فلسطين

قام ترومان لصالح الصهيونية بضغط على انجلترا لتقبل مزيد من «اللاجئين» اليهود فى فلسطين وأيد خطة التقسيم لدولة يهودية ودولة عربية ورتب قرض ماليا من بنك الاستيراد والتصدير للوكالة اليهودية ومع اقتراب موعد نهاية الانتداب الانجليزى ناشد ترومان العرب عدم الهجوم على الدولة اليهودية الجديدة وعين سفيرا فى تل أبيب كان مشهوراً بتأييده لإسرائيل ووقف مندوبوا أمريكا دائماً وأبداً إلى جانب إسرائيل أثناء المناقشات حول خطوات وقف إطلاق النار فى الأمم المتحدة لم تكتف أمريكا بزعامة ترومان بما سبق بل أقدمت وزارة الخارجية على استدعاء السفراء العرب واتهمتهم بالعدوان على إسرائيل وقدمت السلاح والعتاد والذخيرة والطائرات للكيان الإسرائيلى لا بل فتحت باب التطوع فى الجيش الإسرائيلى كما انهالت

التبرعات على المنظمات الصهيونية فى حمى لم يسبق لها مثيل يقول البعض أن ترومان لم يكن يعتقد فى الصهيونية فى البداية فقد قال لأحد الزعماء الديمقراطيين «لا أعتقد أن هناك وسيلة لإرضاء أصدقائك اليهود» وقال الصديق آخر «لقد تلقيت بالبريد ٣٥ ألف منشور دعائى صهيونى فكومتها كلها وشملت فيها النار» كما أن النفوذ الصهيونى بلغ حدا أن الحاخام الصهيونى الأمريكى أبا هليل سلفر ضرب بقبضته على طاولة ترومان ومن وقتها كرهه ولم يدعه أبداً يدخل البيت الأبيض.

علاقة ترومان بزعماء الصهيونية العالمية

كان ترومان على علاقة طيبة بزعماء الصهيونية العالمية مثل حاييم وايزمان وناحوم جولدمان هذا غير العديد من المستشارين اليهود مثل برنارد باروخ الذى كان يسمى قنصل يهوذا فى أمريكا وملك أمريكا غير المتوج هذا غير تركه الوزراء والمستشارين اليهود الذين تركهم روزفلت اليهودى وهم مورجانتو وبرانديس وفرانكفورتر الذى كان يدعى بأنه رئيس أمريكا كان هناك المعارضين للمشروع الصهيونى لأنه سيفتح المجال للنفوذ السوفياتى للتسلل للمنطقة العربية كما قد يخلق حاجزاً يحول دون وصول أمريكا لأسواق تلك المنطقة كما أن قرار الاعتراف بإسرائيل يتناقض مع مبدا حق تقرير المصير للفلسطينيين ولتبرير موقفه المنحاز لإسرائيل أجاب ترومان على المعارضة بقوله «آسف أيها السادة إذا أن على أن تجاوب مع رغبات مئات الآلاف من المواطنين الأمريكيين الذين ينتظرون نجاح الصهيونية فليس لدى بين الناخبين مئات الآلاف من العرب أى أنه يدعى أن ضغط الناخبين هو السبب فى هذا الموقف ولكنه فى الحقيقة شهوه البقاء فى الحكم كان ترومان قد أعلن فى بداية عام ١٩٤٧ معارضته لإنشاء دولة يهودية فى إسرائيل فنظمت حملة صحيفة عن المحرقة (المزعومة) لليهود فى عهد هتلر وعندما أصر ترومان على موقفه أرسل يهود ولاية نيوجرس رسالة له تقول «سياستك ازاء فلسطين تكلفك التأييد الذى أعطيناه لك) وعندئذ اضطر

لمخالفة معارضى الصهيونية وبدا فى تأييد إسرائيل ولكن علينا عدم المبالغة فى مسألة الانتخابات فمنذ دخول ترومان إلى البيت الأبيض نفذ قرار خطر دخول اليهود الذين ادعى البعض أنهم اضطهدوا فى أوربا وذلك لاجبارهم على الهجرة لإسرائيل وهذا بين تأييد ترومان للصهيونية منذ بداية عهده ولكنه كان يحاول ذر الرماد فى عيون معارضى الصهيونية لأن ترومان انضم إلى السلك الماسونية والمعروف أن الهدف الأعظم للماسونية هو إعادة هيكل سليمان وإعادة أمجاد الدولة اليهودية ولأنه صرح عدة مرات أن كتابه المفضل هو التلمود مع أنه يزعم أنه مسيحى ولأن التلمود يحض على قتل الصالح من غير اليهود أو من يقف فى وجه مخططاتهم.

برنامج الصهيونية

كان فورستال أحد الوزراء الأمريكيين المعارضين للمشروع وقال فى مذكراته أن بايلز الصهيونى المستشار الإدارى لترومان وسام رزتمان وهو مستشار آخر كان المسئولين عن قرار الرئيس أن ديوى المرشح للحزب الديمقراطى على وشك الخروج ببيان يتعاطف مع موقف الصهيونية ومعنى عدم تحرك الرئيس فتضيع أصوات ولاية نيويورك يقول فورستال «لم تكن لى سلطة لصنع السياسة ولكنى اعتبرت نفسى مقصراً فى واجبى أن لم أوضح ما كنت أعتقد بأنه سيولد خطر على أمن هذا البلد وقد حاولت بذل جهدى لابعاد موضوع فلسطين عن السياسية أى توقيع اتفاقا بين الحزبين على عدم التنافس على الأصوات اليهودية ولكن روزفلت ومن بعده ترومان قال أن ذلك مستحيل لأن الأمة متورطة إلى حد كبير عندئذ قلت قد نخسر ولاية نيويورك وبنسلفانيا وكاليفورنيا (أصوات اليهود) ولكن حان الوقت لنعطى بعض الاهتمام والتفكير فى احتمال أن نخسر أمريكا يقول فورستال «لقد تناولت الغذاء مع مستر باروخ (قنصل يهوذا فى أمريكا ودكتاتور أمريكا) وقد وجه الحديث لى ناصحا بأن لا اعتنى كثيراً بمسألة فلسطين فقد أشارت لى أصابع الاتهام ولأنه يؤيد العرب «وأخذت تحاصرنى بشكل ليس فى صالحى» وقد أصيب فورستال بانهيار عصبى من الحملة الصهيونية الشرسة الموجهة ضده ثم قتل وكان الطبيب المشرف على علاجه يهودى رغم كل الضغوط ظل فورستال حتى اللحظة الأخيرة من حياته يحاول اقناع قادة الحزبين بحصر

الاهتمام فى أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية وابعاد خطر تسرب السوفيات إليه دون التدخل فى الأوضاع الداخلية ولأنه فشل حتى فى اقناع المعتدلين من الحزبين وفى هذا تقول صحيفة واشنطن بوست «أن سياسة أمريكا (بزعامة ترومان تجاه فلسطين تاثرت كثيراً بنفوذ الصهيونية واللوبى اليهودى.

يقول جيمس ماكدونالد وهو من أشد المتحمسين للصهيونية ولهذا عينه ترومان أول سفير أمريكى فى إسرائيل ولكنه هنا يقول كلمة حق «لم يكن فورستال عدوا لليهود أو لاسرائيل ولم يكن متأثراً بنفوذ شركات البترول (التى تتعامل مع العرب ولكنه اقتنع أن قرار إقامة دولة يهودية لا يتفق مع مصالح أمريكا ومن المؤكد أنه لا يستحق أن تشن عليه هذه الحملات الخبيثة وهذه الحملات المعرضة استخدمت أحقر الوسائل باسم الوطنية للقضاء على الرجال المخلصين من أبنائنا فى عام ١٩٤٥ كان اقتناع فورستال يتجه إلى أن أصحاب المصارف الأمريكيين يشكلون نفيه جماعة واحدة مع أصحاب المصارف العالميين الذين يسيطرون على ماليات انجلترا وفرنسا وغيرها (غالبيتهم يهود) واقتنع أن هؤلاء هم القادة الماسون وهم مسئولين مباشرة عن اشتعال الحربين العالميتين (وليس المانيا) وقد حاول اقناع روزفلت ومن بعده ترومان ومن الواضح أنه فشل فى ذلك ثم اغتيل لاطباق فمه إلى الأبد وهكذا انتصرت الصهيونية على معارضيها بالارهاب ولم يتحرك ترومان.

الجرائم التى ارتكبتها الصهيونية

لقد عبث ترومان بشرفنا فى بوتسدام فقد وافق على توسيع رقعة دولة بولندا التى قدمها روزفلت وتشرشل هدية أو لقمة سائغة لروسيا وهكذا ذهبت المصانع الألمانية لروسيا وعملائها ومن الجرائم التى ارتكبتها الصهيونية دس السم الجماعى للأسرى الألمان فى الحراسة الأمريكية بعد نهاية الحرب وحدث هذا فى مدينة نورمبرج فى ابريل ١٩٤٦ وتسبب فى وفاة ٤٣٠٠ المانى وأصابه ٥٥٠٠ بالشلل الدائم وخرست منظمات حقوق الانسان وقد قام بهذا العمل ٣ من الصهاينة وظلوا بلا عقاب وسكت ترومان اليس القتلة هم اليهود والمقتولين اعداءهم لقد قتلوا كما يقتل الخراف ولو مات يهودى واحد لقامت الدنيا ولم تقعد لم يكتف ترومان بهذه الجريمة بل كان هناك جريمة أكبر الا وهى الموافقة على عمل الأسرى الألمان فى السخره لدى السلطات السوفياتية لأى عدد من السنوات وفى ظروف صعبة سواء من ثلوج أو غيره وحدث هذا فى نفس الوقت التى كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تندد بالشيوعية وبالطغيان وبالستار الحديدى الذى فرضوه على أوريا فأين هى الانسانية.

العصر الذرى الجديد

فى الرابع عشر من يونيه سنة ١٩٤٦ افتتحت لجنة الطاقة الذرية بهيئة الأمم المتحدة أعمالها ومن الكلمات التى القيت عند افتتاح اللجنة لاعمالها كلمة برناردم - باروخ ممثل الولايات المتحدة فى اللجنة «إن خلف الأفق الأسود للعصر الذرى الجديد امل قبضنا عليه بثقة وأمان فيمكنه أن يخلصنا وينقذ أرواحنا أما إذا فشلنا فإنا نكون قد حكمنا إلى الأبد على كل إنسان أن يصير عبدا للخوف أن العلم الذى أعطانا هذه القوة المميتة يبين لنا أنه يمكن تكيفها لتكون مساعدة هائلة للإنسانية ولكن العام لا يظهر لنا كيف نتجنب استعمالها الشرير وقائل هذه الكلمات هو باروخ وهو الذى اشار على ترومان باستخدام القنبلة الذرية والقائها على اليابان وقد كانت لجنة النشاط الذرى الأمريكى مكونة كلها من اليهود (ليلنتال - شتروس - باتشر - ويماك ويابك وكان الهدف الحقيقى فى رأيى الا يكون هناك شعب أذكى من شعب الله المختار.

القنبلة الذرية الأولى

نجحت الولايات المتحدة الأمريكية فى اجراء أول اختبار عملى لسلاح مميت غير تقليدى فى ١٦ يوليو عام ١٩٤٥ ونجحت أمريكا فى تفجير القنبلة الذرية الأولى فى موقع التجارب فى مكان يسمى ترينيتى فى ينومكسيكو وثبت لها أن السلاح الجديد قابل ومعه للاستخدام وبعد هذا التاريخ باقل من شهر القيت قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما باليابان تلك المدينة الحزينة التعسة التى لم تكن حتى ذلك التاريخ قدمتها الحرب فكأنما أراه الإنسان أن يدرس على الطبيعة التأثير المدمر لهذا السلاح الجديد الذى اخترعه مستخدما المخلوقات البشرية كحيوانات تجارب له ومستخدما بيئة عذرا لم يمسها الصراع لكى يحصل على صوره كاملة لأثر القنبلة الجديدة غير التقليدية التى أنتجها فى معاملة.

الحرب النووية الأولى

لم تستغرق تلك الحرب النووية أكثر من ثلاثة أيام مدة قصيرة فى معدل الزمن ولكنها كانت كافية لتوضيح القوة الرهيبة للسلاح الجديد كما كانت حربا من جانبا واحد فقط وهو الجانب الذى يملك السلاح النووى رمزا للقسوة والوحشية والهلع لا يمكن أن يصمد أمامه أحد خاصة وأنه فى يد جانب واحد هو الذى صنعه واستخدامه فى ثوان احترف الآلاف الذين كانوا يسيرون فى الشوارع والحدائق من جراء الحرارة الهائلة التى ولدها الانفجار بينما وقع الكثيرون على الأرض صارخين من الألم الناتج من الحروق الشديدة وتهدم كل شئ من منازل ومصانع وانتزعت القطارات من خطوطها الحديدية وارتفعت فى الهواء كأنه لعب أطفال واختفت الأشجار فى اللهيب وكان انهيار المبانى شبيهة بانهيار بيوت الكرتون كان هذا فى القنبلة التى لقيت على هيروشيما فى ٦/ ٨/ ١٩٤٥ ثم القيت قنبلة أخرى على نجازاكى فى ٩/ ٨/ ١٩٤٥ بقرار من الطاعنة ترومان ولقى حتفه من هذا السلاح الرهيب ربع مليون مواطن هذا غير الجرحى والمشوهين والذين يولدون حتى الآن بعد ٥٠ سنة من القاء القنبلة مشوهين.

التسليم غير المشروط

فى ٢٦ يوليو عام ١٩٤٥ أصدر انذار إلى اليابان من الثلاثة الكبار يطلبون فيه التسليم ومضت ثلاثة أيام جاء بعدها رد رئيس الوزراء اليابانى الأميرال سوزوكى أنه يرفض الانذار الثلاثى بكل إباء ومع ذلك أبدت اليابان استعدادها للاشتراك فى مباحثات سلام لانهاء الحرب على شرط أن تحتفظ اليابان بكل الأراضى التى استولت عليها وأن تحصل على تأكيدات من الحلفاء أن يحتفظ الامبراطور بعرشه ورفض الحلفاء شروط اليابان وأصروا على أن يكون تسليم اليابان تسليما غير مشروط وقد كان هنرى سمسون وزير الحربية وجرو وزير الخارجية يضغطان على ترومان ليعلن أن استسلام اليابان خاضع للمفاوضات وليس دون قيدا وشرط والابقاء على النظام الامبراطورى لكنه رفض بسبب مستشاريه اليهود وقد كان الاسطول الأمريكى يضرب الموانى والمصانع اليابانية كانت آتية ولم يكن هناك داع لإلقاء القنبلة ولكن ترومان كان يدعو اليابان للاستسلام دون قيدا وشرط على أن تحرم اليابان من جميع ممتلكاتها بالخارج وأن قادة اليابان سيحاكمون ويعاقبون وهكذا أصدر الحكم قبل الإدانة فلم يكن أمام اليابان سوى الاستمرار فى الحرب مع معرفتها بالهزيمة. من العسير على أى قائد عسكرى أن يأتى بتبرير لحادث القاء القنبلة الذرية حيث قتل ربع مليون فى غمضة عين وأصيب ما يقرب من ضعف هذا العدد بجراح خطيرة فقد كانت القوات اليابانية قد هزمت وكانت قضية التسليم مسألة أيام ولم يكن هناك

أى داع لتنفيذ مثل هذا العمل الجهنمى والتعليل المنطقى هو أن القوى اليهودية الخفية قررت استعراض هذا السلاح الحديث لتذكير ستالين بما يمكن أن يحدث إذا ما تمادى فى مطالبه وهذا هو العذر الوحيد وهو لا يشكل ولا حتى شبه تبرير لهذه الجريمة الشنعاء التى ارتكبت ضد الانسانية.

مبدأ ترومان

فى ١٢ مارس ١٩٤٧ تقدم ترومان بما عرف بمبدأ ترومان ويقضى بتقديم المساعدة العسكرية والاقتصادية لتركيا واليونان ولكل دولة أخرى تتصدى للعدوان الشيوعى، وأعلن أمام الكونجرس أن على أمريكا أن تقدم كل عون للشعوب الحرة التى تتصدى لكل محاولة من جانب أقلية مسلحة لاخضاعها أو أى ضغط خارجى عليها ترى فمن هو الذى يحدد الشعب الحر ومن الذى يحدد أن هناك ضغط على هذا الشعب الحرانى المسألة لا تخضع إلا لرغبة ترومان ورؤساء أمريكا ومن يسيرونهم من خلف ستار.

لا للمعونة

أعلنت أمريكا عن مشروع مارشال وهو مد الدول التى خرجت من الحرب بمجموعة من القروض حتى تنهض من عثرتها ولكن الكثيرون فى أوربا فهموا هذه الخدعة فرفعوا شعار التجارة لا المعونة وهى تعنى أن توجه المساعدة للمصانع والمنتجات الأوربية وليس للاستهلاك حتى لا تظل أوربا سوقا لأمريكا ولكن رفضت وحتى بعد أن تمكنت أوروبا من النهوض بقى كيان أوربا الاقتصادى قائم فى براشن الشركات القابضة والاتحادات الاحتكارية (ترست) واتحادات المنتجين (كارتل) وهى الشركات المتعددة للجنسية عابرة القارات اليهودية هذه الشركات الاحتكارية أى التى تحتكر كل منها واحدة وتبيعها بالسعر الذى تراه فى كل العالم تنقسم لشركات ومصانع السلاح اليهودية وشركات تبيع المواد الخام التى تساعد فى إنتاج السلاح كالالومنيوم للطائرات والحديد للدبابات هذه الشركات لا تسمح لأحد أن ينفذها فى أجهزة الاعلام والافالويل له ويصل نفوذها لتعيين رئيس الجمهورية أو غالباً ما يكون أحد رجالها فإذا حاول القضاء على نفوذها لقى حتفه على الفور كما حدث لكيندى مثلاً هذه الشركات اليهودية كانت من الأسباب الأولى لإشتعال الحرب العالمية الثانية حتى تحصل على أوامر توريد من الحكومة الأمريكية تزيد عن المعدل العادى وخصوصاً شركات البترول بزعامة شركة ستاندارد اويل بزعامة روكفلر اليهودى وحققت هذه الشركات أرباح خيالية على حساب دماء الشعوب بعد خمس سنوات ونصف من سفك الدماء انتهت الحرب وكان لابد من اشتعال حروب أخرى والا تعرضت البلاد للكساد وسرح العمال وانتشرت البطالة وأغلقت المصانع فالاقتصاد الأمريكى يقوم على اشعال الحروب ومن هنا كان الموقف الأمريكى المتصلب بزعامة ترومان ١٩٤٨ فى أزمة برلين ضد الاتحاد السوفياتى وكان مشروع مارشال الذى يقتضى ارسال منتجات.

حرب الخليج الثانية

حرب أرادتها أمريكا، وخططت لها

أمريكا أرادت حرب الخليج ودبرتها ونفذتها وكانت صاحبة المصلحة الكبرى فيها والمستفيد الأول من نتائجها وتعالوا سنتعرض ما استهدفته أمريكا وكيف نجح بوش فى تنفيذ هذه الأهداف وتحقيق السيطرة وجنى المكاسب على جميع الجهات ولنبدأ بأبسط المنجزات وأقلها أهمية فى السيناريو العالمى الأهداف وتعنى الربح الذى حققته الولايات المتحدة بتصدير أزمتها الاقتصادية حل هذه الأزمة أو على الأقل تخفيف حدتها بالأسلوب التقليدى وهو الحرب فقبل انتهاء الحرب كانت واشنطن قد فرضت جزية على دول العالم جمعت بها ثلاثة وأربعين ألف وثمانمائة مليون دولار وهو ما ستحصل عليه الولايات المتحدة من تبرعات ومساعدات الدول الحليفة والدول المرغمة ثمناً لتدمير الكويت والعراق ستدفع السعودية والكويت منها أكثر من ثلاثين بليون دولار وفى نفس الوقت بقدر أن تحصل الولايات المتحدة على أكثر من مائة بليون دولار فى أقل تقدير من نفقات إعادة بناء ما دمرته قواتها وقوات صدام فى الكويت وحدها وهكذا تكون الولايات المتحدة قد قدمت أبشع صورة للنظام الرأسمالى صورة وحشية لم تخطر ببال ماركس ولا اقترحها كاتب شيوعى فى أعنف سنوات النقد للرأسمالية صورة الرأسمالية التى تستخدم الدولة فى شن حرب هى فى الحقيقة مقاولة بتدمير دولة وإعادة بنائها لحساب الشركات التى توجه سياسة الدولة الكبرى

المتآمرة «لا نستطيع أن نعرف مدى مساهمة الحرب فى انتعاش الاقتصاد الأمريكى ولكن من المعتقد أن نسبة كبيرة من هذا الانتعاش تعود لهذه الحرب «فى العراق والكويت تمت أسرع عملية تدمير اقتصاد فى التاريخ ففى أسابيع قليلة تحول إلى دخان جهد وانتاج ملايين الساعات من العمل الإنسانى وستمر سنوات قبل أن يعود العراقيون والكويتيون الذين سيكتب لهم البقاء إلى مستوى معيشتهم السابق على الحرب لقد أعادت هذه الحرب المقولة القديمة عن خلق فرص عمل بتشغيل الناس فى عمل حفرة ثم اعادة ردمها ولكنه مجرد عمل لا انتاج فيه ومع ذلك فإن إعادة البناء ستنشط رجال الأعمال الذين سيحصلون على العقود».

وهذه صورة مخففة جداً بل ومزورة لما حدث فعندما اقترح روزفلت فى أزمة الرأسمالية العالمية تشغيل العاطلين وحل الأزمة بما وصف وقتها بأنه يشبه تكليف بعض العمال بعمل حفرة وتكليف البعض بردمها ورغم الصورة الهزلية التى بدا فيها الحل الرأسمالى فى هذا التشبيه إلا أنه لم يكن هناك قتلى وجرحى ولا اقتصاد وحضارة تدمر ولا جهد شعب يحرق فى ساعات ومن المؤلم أن تكشر أمريكا عن الوجه البشع للرأسمالية فى نفس اللحظة التى كان العالم يعيش فيها أحلام العالم الجديد وإنتهاء التاريخ وسقوط الشيوعى القبيح وبزوغ شمس الحرية على شرق أوروبا لأول مرة منذ نصف القرن وما نسج حول انهيار النظام السوفيتى من أمال مثل قيام صيغة جديدة للعلاقات الدولية تحل محل أساليب الحرب الباردة فإذا بحكومة الرئيس «بوش» تعيد العالم إلى صيغة القرن التاسع عشر فى أقبح صوره فالنظام الأمريكى كان يواجه انكماشاً خطيراً يميل نحو كارثة اقتصادية من طراز الأزمة العالمية لعام ١٩٢٩ بحيث أصبح توقع حدوثها هو الخبر الدئم فى النشرات الاقتصادية والندوات التى تحاول استقراء المستقبل الاقتصادى الأمريكى وانكماش الاقتصاد الأمريكى له أسبابه العديدة من الدورة العادية للنظام

الرأسمالى ما بين التوسع والانكماش إلى الافتقار المتزايد للعالم الثالث برفع سعر البضاعة المصنعة وخفض أسعار الخامات حتى أصبحت نسبة التبادل غير عادلة وغير كافية لاستمرار الدول المصدرة للخامات كعنصر اقتصادى فعال فى السوق العالمية ثم جاءت الديون التى قسمت ظهر هذه الدول وقضت على أى أمل فى تحقيقها لنمو اقتصادى يكفى لاطعام شعوبها وبإمتصاص دخل هذه الدول فى أقساط الديون والفوائد خرجت أو كادت من السوق العالمية وأدى عجزها عن تسديد هذه الديون الفاحشة الربا والشروط إلى زعزعة النظام المصرفى الأمريكى الذى لم يفقد فقط مكانته كرائد ومركز عالمى لسوق المال بل أصبح رجل العالم الرأسمالى المريض أو الحائط المتداعى الذى يرقب الجميع انهياره بفزع وقد استغل أكبر بنك فى أمريكا فرصة الحرب ووجود نصف مليون عسكرى فى الخليج ليحصل على اسعاف نقدى ينقذه من أزمة سيولة مهددة وجاء الإنقاذ فى نصف مليار دولار تطوع بها أمير سعودى من الجيل الثالث ودفع أكبر بنك أمريكى للأمير فائدة جديدة ببنك مكسيكى (١١٪ بينما الفائدة فى السوق ٦٪) ومتاعب النظام المصرفى الأمريكى أثرت بدورها فى الاستثمارات والتمويل الضرورى للنشاط الاقتصادى وزاد الطين بله الهجمة الشرسة التى قام بها اليمين الأمريكى فى عهد ريجان عندما الغى كل القوانين والضوابط التى وضعت فى عصر الانتصارات الليبرالية فى الخمسينات والستينات والتسعينات فعربدت الاحتكارات الأمريكية وسرقت أموال صغار الموزعين فى بنوك الإدخار والتسليف مما أدى إلى انكماش الإدخار وتدهور معدل الاستثمار وقبل ذلك كله بل واهم من ذلك كله «أنه نتيجة المركز الاحتكارى للصناعة الأمريكية وبسبب من الانفاق العسكرى المهلك فإن الصناعة الأمريكية خسرت سباق التحديث وبالتالى «سباق الأسواق» مع اليابان والمانيا اللتين يحرم دستورهما الذى كتب تحت اسنه الحراب الأمريكية امتلاك جيش أو الانفاق العسكرى بالمستويات الأمريكية والروسية أو حتى البريطانية والفرنسية وهكذا فالبلدان

اللذان لا يملكان جيشاً ولا مستعمرات كان عليهما أن يدافعا عن وجودهما بالقتال فى ساحة التكنولوجيا واتقان الانتاج فتفوقا وغزوا أمريكا فى عقر دارها وأصبحنا نسمع صيحات الكونجرس تطالب بالحماية للصناعة الأمريكية من خطر المنافسة اليابانية بل وعدنا لمناخ الحرب العالمية الثانية عندما كان شبح العملاق اليابانى هو الخطر الأكبر على المصالح الأمريكية وقد أجرت مؤسسة «جالوب استفتاء فى الأسبوع الأول من مارس ٩١ حول من يشكل أكبر تهديد للولايات المتحدة فقال ستون بالمائة اليابان ومع الهزيمة الصناعية أمام المانيا واليابان تعالت الأصوات فى أمريكا ضد الصيغة التى يدار بها الاقتصاد الأمريكى وتركز الهجوم على المؤسسة العسكرية التى وصلت ميزانيتها إلى ٣٠٠ مليار دولار وانتشرت الاتهامات لهذه المؤسسة بالرشوة والفساد وسمعنا احاديث عن مسمار يشتريه البنتاجون بعشرة دولارات وثمنه أقل من دولار وكراس المراخيص التى تتكلف أغلى مما تتكلفه فى الدرجة الأولى لشركات الطيران العالمية وأسلحة مشكوك فى جدواها ولم تستعمل قط، تتكلف الملايين وهذه المبالغ كما يقول الناس تقتسم بين الاحتكارات الصناعية والبيروقراطية العسكرية وجاء انتهاء الحرب الباردة يلقى مزيداً من الوقود فى نار الهجوم على المؤسسة العسكرية من الذين يطالبون بتوجيهه جانب ضخم فى ميزانيتها للانفاق المدنى سواء يعيشون تحت مستوى الفقر ومئات الألوف الذين يعيشون فى الطرقات كالسائمة بلا مأوى فى المجتمع الأمريكى العظيم وقد أبرزت نهاية الحرب الباردة مشاكل عوده الوف الجنود من أوربا وحتمية تسريح عشرات الألوف من القوات الأمريكية فى أمريكا ذاتها وما يستلزمه خفض الانفاق العسكرى من تقليص انتاج السلاح وبالتالى مزيد من تسريح العمال وكل هؤلاء سيقذف بهم إلى سوق البطالة المشبعة بالفعل بالعاطلين (الانكماش الاقتصادى الفى مليون ونصف وظيفة منذ الصيف فقط إلى إبريل ١٩٩١ ولنذكر أن إحدى أهم المشاكل للاقتصاد السوفيتى هى مشكلة الجنود المسرحين إذا قبل أن تحويل

الجندى إلى مدنى يتكلف خمسين ألف روبل وهو ما لا يطيقه الاتحاد السوفيتى ولابد أن الرقم فى أمريكا أكبر من ذلك بكثير والرأسمالية تعرف ماذا تعمله البطالة من مخاطر ومن ثم فالرفض المفاجئ للانفاق العسكرى يهدد الصناعة الأمريكية كلها بل وربما يهدد لأول مرة السيطرة المطلقة للاحتكارات الأمريكية التى فاحت فضائحها والتى لو تأخر انهيار الشيوعية لخمس سنوات فربما شهدت أمريكا الثورة الاشتراكية الموعودة بعد أن ثبت أن هذه الطبقة فقدت القدرة على المنافسة والتجديد مع فقدانها حتى الشرف بصفقات البنتاجون ونهب صناديق الادخار والتسليف وكان الحل هو تصدير الأزمة شحن الجنود للخليج وتحميل دول الخليج وأوربا واليابان نفقات تشغيلها واستمرار انتاج السلاح فحتى القاذفة ب ٥٢ التى كان قد تقرر اطلاق رصاصة الرحمة عليها عادت لخطوط الانتاج ومن ثم فوضع القوات الأمريكية فى الخليج هو الأفضل اقتصادياً وسياسياً واستمرار انتاج السلاح. ولا توجد حملة بهذا الحجم فى التاريخ دفعت نفقاتها بالكامل من تمويل خارجى ومنحه وليست قرضا فكما قيل هذه الحرب لم تمول بطبع الدولارات كما حدث فى فيتنام مما أدى إلى هبوط الدولار من على عرشه وخروج أمريكا عن قاعدة الذهب بل مولها الآخرون فليس لدى دافع الضرائب الأمريكى ما يشكو منه بل على العكس. فالمنتفع الأكبر من جريمة تدمير الكويت والعراق هو الولايات المتحدة الأمريكية التى اغتصبت سبعين بالمائة من العمليات وثمن تعمير الكويت وبعدها مباشرة تأتى بريطانيا التى لم تدخر حياء ولا كرامة إلا أهدرتهما للحصول على عشرين بالمائة من الصفقة وبالمصادفة فإن الدولتين هما الأضعف اقتصادياً بين الدول الصناعية الكبرى فهما فى ذيل القائمة التى تتصدرها المانيا واليابان ولكن أمريكا على يد جورباتشوف أصبحت أمريكا وفى ذيلها بريطانيا مطلقة السراح كأكبر قوة عسكرية عرفها التاريخ بلا منازع أو مقاوم وقد شهدت «التايم» أنه لو كان الاتحاد السوفيتى فى مركزه القديم لما أمكن أن تنفذ

الولايات المتحدة استراتيجيتها فى «تحرير» الكويت (ونضيف) و «تدميرها» أن النصر لم يكن ممكناً بهذه الصورة لو كان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة مازالا يتنافسان فى كل مكان أو قضية فى العالم فلو كان «الكرملين» قد حافظ على سياسته القديمة بالتهديد بالتدخل لحساب صدام بما تبقى من قوته العسكرية الجبارة فلربما كانت الكويت الآن منزوعة السلاح الدولتان الأضعف اقتصادياً استخدمتا قوتهما العسكرية فى انتزاع حصة من الثورة الخليجية لا تتناسب مع قدراتهما الاقتصادية وبذلك وضعنا بذور الحرب العالمية الثالثة.

من المتوحش؟

«إنهم يفعلون ما يحلو لهم، يستعبدون كل من ليس من لونهم. يريدون أن يجعلوا منّا عبيداً، وحين لا يتحقق لهم ذلك يقتلوننا. إياك أن تثق بكلماتهم أو وعودهم. إنها أحابيل، صدقني، فأنا أعرف سكاكينهم الطويلة جيداً.»

باشغنتاكيلياس، زعيم هنود دولاوير، ١٧٨٧

فى كتابه عن نظريات الاستعمار الإنجليزية، يعتقد كلاوس كنور أن الإنجليز أكثر القوى الاستعمارية الأوروبية ممارسة وتعمداً للإبادة، وأن هدفهم النهائى فى العالم الجديد كما فى أوستراليا ونيوزيلاندة وكثير من المناطق التى يجتاحونها هو إفراغ الأرض من أهلها وتملكها ووضع اليد على ثرواتها. خلال هذه المسيرة التى بدأت بإيرلندا ولم تنته بعد، تحكمت عقدة الاختيار الإلهى والتفوق العرقى بسلوكهم وبنادقهم، واستحوذت على أخلاقهم وعقولهم، ثم استعمرتهم بنظام متكامل من الذهان الهذائى Paranoiac انتهى بهم إلى تأليه الذات God is an Englishman. وهذا ما أوهمهم بأنهم يملكون حق تقرير الحياة والموت لكل من عداهم، وأنهم أيضاً فى حل من أى التزام إنسانى أو قانونى تجاه الشعوب التى يستعمرونها، لا باعتبار أنها أعراق منحطة وحسب بل لأنها فى الغالب مخلوقات متوحشة لا تنتمى للنوع الإنسانى.

ولم ينج من هذا التصنيف البيولوجى أقرب الناس إليهم، وجيرانهم فى الجزيرة، وشركاؤهم فى البياض والنضارة. فلطالما لازمت الإيرلنديين صفة التوحش wild Irish وقالوا عنهم إنهم

«يعبدون الشيطان، وإنهم أجلاف، عراة، أحلاس الغابات والمستنقعات، يعيشون على نوع من الأعشاب، ويأكلون فى المناسبات الخاصة من لحم البشر أو من لحم أمهاتهم اللواتى كانت لهن أذناب طويلة وكن متوحشات يأكلن أطفالهن».

والواقع أن التجربة الإنجليزية مع «المتوحشين» الإيرلنديين تكررت مع

كل الشعوب التى اجتاحوها، بدءاً بالهنود والعرب وانتهاء باليابانيين والفييتاميين. إن قراءة تاريخ الإجتياح الإنجليزى لإيرلندا تساعد على وضع معجم سيمفونى لطبقات «الوحشية» التى واجهها الإنجليز فى حملاتهم المختلفة لنشر الحضارة، وتفسر الفروقات الإيقاعية المرهفة التى تفرضها طبيعة «المجاهل» على استخدام هذا السلم الموسيقى العرقى. صحيح أن الإنجليز قضوا على نسبة كبيرة من سكان أيرلندا، ونهبوا كل ثروتها «النفطية» بتعرية غاباته سجرة شجرة، وتركوا فيها سجلاً حافلاً من المذابح والفظاعات، لكن ذلك لا يخفى براعة الإنجليز فى دوزنة فظاعاتهم ومذابحهم وفقاً لتصنيفاتهم العرقية. وبدون التقليل من هول ما تعرض له الشعب الإيرلندى فإن «ما ارتكبه الأوروبيون بحق الأوروبيين فى حروبهم واجتياحاتهم ـ مقارنة بما ارتكبوه فى العالم الجديد ـ لم يكن أكثر من «شجار عائلى» كما يقول فرانز فانون. ففى أيرلندا نفسها حاول الإنجليز خلال حملتهم الاستعمارية عليها أن يميزوا بين «وحشيتين» مختلفتين لأسباب عرقية: إحداهما متأصلة فى الإيرلنديين الغيليين Gael الأقحاح، والثانية مكتسبة أصابت ما يسمى «الإنجليز القدامى Old English» بحكم معايشتهم الطويلة للإيرلنديين المتوحشين وقد أحكموا ارتكاب فظاعتهم وفقاً لهذا التصنيف ببراعة لا يجاريهم فيها متحضر.

أما سكان العالم الجديد الذين لم يشاركوا الإنجليز فى اللون واللسان والأرض والدين، فقد كان من المستحيل على نظام الهذيان (بعد أن باركته السماء) أن يساوم على تفوقه العرقى أو يلتزم بحد أدنى من الأخلاق أو المشاعر الإنسانية تجاه ضحاياه. منذ البداية كان هناك نوع من السيكولوجيا الاستعلائية التى أعطت مرضاها سيف «الجلاد المقدس». كانت قصص اجتياح كنعان فى العهد القديم تمدهم بالأسس الأخلاقية اللازمة لتماسك هذه السيكولوجيا الاستعلائية ولتبرير عنصريتها وعنفها المميت. لم يكونوا واثقين إلا من شئ واحد: أن الله فضلهم واصطفاهم على العالمين وأعطاهم الأرض وحق تقرير الحياة والموت والرزق لكل من يعيش فوق هذه الأرض.

هكذا حمل شعب الله سيف «الجلاد المقدس» ولم يساوره الشك فى أن الإبادات لم تكن إلا تدبيراً إلهياً مباركاً ورسالة فى المجاهل errand into the wilderness عهدها الله إليهم. لقد كان من الشروط الأولية اللازمة للإبادة الجماعية التى ارتكبها الاسبان والأنكلو ـ أميركان ضد الهنود، التأكيد على لا إنسانيتهم وعلى أنهم بالوراثة كائنات منحطة. وكان الاسبان أكثر تواضعاً حين قالوا إن الهنود «عبيد بالطبيعة»، ذلك لأنهم لم يكونوا يطمحون إلى أكثر من استعباد الهنود وسرقتهم. أما القديسون الإنجليز فكانوا يتطلعون إلى ما هو أسمى من الاستعباد ويطمحون إلى الاستيلاء على الأرض واستبدال أهلها وثقافتها أو ما يسمونه بنشر الحضارة. لهذا ترجموا كتابات العنصريين الاسبان مثل «غونزالو فرنانديس أوفيدويى فالديس» و «فرانسيسكو لوبير دوغامارا»، وعفوا أو تلكأوا فى ترجمة المنصفين مثل «بارتولومه دو لاسكازاس». وتقول عالمة الإنسانية مرغريت هدجن إن أول كتاب إنجليزى عن الهنود نشر فى عام ١٥١١ «وصفهم بالوحوش التى لا تعقل ولا تفكر وتأكل بعضها، بل إنهم كانوا يأكلون أبناءهم وزوجاتهم». وكان عامة الإنجليز يؤمنون بوجود كائنات نصفها بشر ونصفها وحش. وكالعادة فقد سكنت هذه الكائنات معظم الأعمال الفلسفية الإنجليزية والأوروبية فى تلك الفترة وشاعت فى الأعمال الأدبية. وكان اليسوعى جوزيف فرانسوا لافيتو Joseph Francois Lafitau فى كتابه عن عادات الهنود الأمريكيين قد تحدث عن وجود «كائن هندى بدون رأس، لكن له وجهاً فى صدره»! وقد أطلق عليه اسماً أسطورياً Acephal. لهذا لم يكن مستغرباً إيمان عامة الإنجليز فى تلك الفترة بأن لكثير من هنود امريكا أظلافاً واشكالاً شيطانية. وهى أشكال نعثر عليها فى كتابات معظم أنبياء الاستعمار الأوائل الذين اختلط عليهم شكل الكنعانى التاريخى الملعون بشكل الوحش الهندى المنحط فى صورة أوفيدية ممسوخة ليس لها وجود إلا فى مخيلاتهم. وكان أوليفر هولمز وهو من أشهر أطباء عصره، قد لاحظ فى عام ١٨٥٥ أن إبادة الهنود هو الحل الضرورى للحيلولة دون تلوث العرق الأبيض، وأن اصطيادهم اصطياد الوحوش فى الغابات مهمة أخلاقية لازمة

لكي يبقى الإنسان فملاً على صورة الله.

هكذا بدأت دعوات الإبادة الشاملة تعلو عندما لم يكن فى كل الشمال الأمريكى سوى ألفى إنجليزى. ثم ازدادت هذه الدعوة حدة وجنوناً حين تأكد الإنجليز أن الهنود قد يرحبون بهم ضيوفاً ويكرمونهم بما يكفيهم من الأرض والرزق ويعيشون معهم بسلام، لكنهم لن يتنازلوا طوعاً عن أراضيهم، ولم يتقبلوا فكرة السخرة والاستعباد. وكانت كل بادرة لمقاومة هذا الجشع والتعصب المقدس برهاناً إضافياً على صدق أسطورة أمريكا وعلى صدق الدعوى بأن الهنود متوحشون عدوانيون لا تنفع معهم إلا الإبادة. إن التسامح مع الشرير ليس إلا تشجيعاً للشر، وليست هناك خطيئة أعظم من هذا. ومع تقدم الزمن صارت شيطانية الهندى الأحمر بديهية لا تحتاج إلى دليل مثلما أن إنجليزية الله وتفوق شعبه من البديهيات التى لا تحتاج إلى دليل. لقد سكنت شيطانية الهنود أحلام الملائكة حتى إن ميرسى شورت Mercy Short التى زعمت أن الشيطان تلبسها وصفته على شكل هندى له أظلاف شيطانية. إن هذا الشيطان الهندى هو الكابوس الذى يقض مضجع الزنابير.

***

قبل مذبحة «ووندِدْ نى» Wounded Knee الشهيرة بأيام كتب فرانك باوم فى صحيفته The Aberdeen Saturday Pioneer، ولم تكن عبقريته القصصية قد تفتحت بعد، يدعو إلى الإبادة الشاملة لمن تبقى من الهنود:

«إن أصحاب البشرة الحمراء قد أبيدوا، ولم يبق منهم إلا مجموعة صغيرة من كلاب هجينة تعض اليد التى تطعمها ولا تتوقف عن النباح. أما البيض فإنهم بحكم الغلبة وبقضاء الحضارة أسياد القارة الأمريكية، وإن أفضل أمن لمستوطنات الثغور يجب أن يتحقق بالإبادة الكاملة لهذه البقية الباقية من الهنود.. إن موت هؤلاء الأشقياء خير لهم من الحياة».

وكانت هذه البارانويا العنصرية هى التعبير الصادق عن مزاج الزنابير

فى نهاية القرن التاسع عشر. فبعد أيام قليلة ارتكبوا مذبحة «ووندِدْ نى» التى قتل فيها المئات من رجال شعب لاكوتا ونسائهم وأطفالهم بالقصف العنيف. أما الناجون فقد تعقبوهم وقتلوهم إنساناً إنساناً لا لشئ سوى أن بشرتهم حمراء ودمهم هندى وأرضهم كنعانية طيبة. وكتب شاهد عيان، وهو طبيب أديب نصف عندى يدعى شارل ايستمن (أو هى ييسا Ohiyesa):

«على بعد ثلاثة أميال من مكان المذبحة وجدنا جثة امرأة مدفونة تحت الثلج. وانطلاقاً من تلك النقطة تناثرت الجثث على طول الطريق وكأنها طوردت واصطيدت وذبحت بعزم وتصميم فيما كانت تحاول أن تنجو بأرواحها. بعض من معنا اكتشف بعض أهله أو أصدقائه بين القتلى، وكان هناك ندب ونواح يملأ الأرض. وحين وصلنا إلى حيث كان المخيم الهندى وجدنا بين بقايا الخيام والأمتعة المحترقة جثثاً متجمدة تتلاصق هنا فى صفوف أو تتراكم هناك فوق بعضها فى أكوام... ولم أستطع أن أحتفظ برباطة جأشى بسهولة أمام هذا المشهد الذى أتلف كل أعصابى وأمام ذلك الحزن العميق الذى طغى على كل من معى من الرفاق بين من يجهش فى بكائه أو يتلو نشيد موته».

ويضيف عالم الإنسانيات جيمس مونى:

«تحت ركام الثلج، كان هناك نساء على قيد الحياة، لكنهم تركوهن للموت البطئ، وكذلك حال الأطفال الرضع المقمطين والمرميين إلى جانب أمهاتهم... كانت جثث النساء متناثرة فوق محيط القرية. وتحت علم الهدنة كانت هناك امرأة صريعة ومعها طفلها. لم يكن الطفل يعرف أن أمة ميتة، ولهذا فقد كان يرضع من ثديها. وبعد أن قتل معظم من فى القرية أعلن الجنود أنهم يضمنون سلامة الجرحى أو كل من بقى على قيد الحياة إذا ظهروا. وخرج بعض الأطفال من مخابئهم، لكن الجنود أحاطوا بهم وذبحوهم. لقد كان واضحاً أن تعمد قتل الأطفال والنساء هو لجعل مستقبل الهنود مستحيلاً».

فى اليوم الرابع للمذبحة كتب باوم مزهواً بنشوة الانتصار:

«لقد فعلنا حسناً. ويجب علينا أن نتابع المسيرة لحماية حضارتنا... إن علينا أن نقطع دابر هذه المخلوقات الوحشية ونمحو ذكرهم من على وجه الأرض».

***

كل شهادات المستعمرين الأوائل كانت تسخر من مفهوم الحرب عند الهنود لافتقارها إلى عنصرين أساسيين فى الثقافة الحربية الكلاسيكية: القتل، والتوسع فى الأرض. ولأنها أشبه بمهرجانات لاستعراض الشجاعة والبطولة والمهارات وليس لاستعراض الجثث. أول ما لاحظه المستعمرون أن.

«حروب الهنود كانت للتسلية والرياضة البدنية وليست لإخضاع الخصم. فقد يتحاربون سبع سنين دون أن يسقط بينهم سبعة قتلى. إنهم يقاتلون فى السهول بالقفز والرقص، وعندما يجرح واحد منهم يتوقف الطرفان عن القتال وينكب المتحاربون جميعاً على إسعاف الجريح.».

ولاشك فى أن هذه الثقافة الحربية المختلفة التى لا تؤمن بالعنف المنظم كانت مقتلاً من مقاتل الطالبيين الهنود وحجر زاوية فى حرب الإبادة التى تنتمى إلى ثقافة وأخلاق مختلفتين تماماً. عندما أعلن كورتيس للهنود أنه جاء إليهم فى مهمة سلمية صدقوه ورحبوا بهذا الغازى الدموى وفتحوا له دورهم وقصورهم ومناجم ذهبهم. فمن قواعد الحرب بين الهنود أن إعلان السلام لا يعنى شيئاً غير السلام. ومن هذا المنطق اطمأن الهنود إلى أن كورتيس جاء فعلاً فى مهمة سلام. إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يعلن الأوروبى شيئاً ولا يتقيد به، ولماذا يقول قولاً ولا يفعله، ولماذا يوقع اتفاقية ثم يخرقها فى أقرب فرصة ممكنة. ولعل هذا ما تعبر عنه هذه الكلمة البريئة التى ألقاها أحد هنود لونابه Lenape أمام أحد المستعمرين الإنجليز:

«إننا نريد أن نعيش معكم بسلام كما عشنا مع غيركم من الشعوب. لو

أننا فكرنا فى أن نحاريكم يوماً فإننا سنعلمكم بذلك سلفاً، وسنبين لكم الأسباب التى نريد أن نحاربكم من أجلها. فإذا أبديتم ما يقنعنا أو يعوضنا عن الأضرار التى سنحاربكم من أجلها فإننا لن نحاربكم. وإذا أردتم أن تحاربونا يوما فنرجو أن تعلمونا بذلك وتبينوا لنا الأسباب، فإذا لم نقنعكم أو نعوضكم عن الأضرار التى ستحاربون من أجلها فلكم الحق فى محاربتنا.. وإلا فليس لكم أن تحاربونا».

لم يستطع الهندى أن يفهم دوافع الحرب التى يشنها الأوروبى والعنف المميت الذى يمارسه والفظاعات التى تواكب حروبه. لم يستطع أن يفك ألغاز تقديسه للملكية وهو سه باغتصابها من الآخرين. إن نظام قيمه لا يعنى بالتراكم المادى ولا تستهويه «ثروة الأمم» التى ألهبت خيال الإنجليزى وبندقيته، وجعلت الملكية فى عينى مارتن لوثر معياراً للتفريق بين الإنسان والحيوان! هلاّ رأى نبى وول ستريت بأى ماء تسيج الضباع أطيانها؟ الحرب الهندية على ندرتها لا تعلن إلا بسبب إهانة شخصية أو حوادث فردية. ولطالما أمكن تفاديها بالتعويض أو الاعتذار أو الدية. أبداً لم يزعم الهنود باحتكار الحقيقة المطلقة؛ هذا الوباء المقدس الذى ألهب طقس العنف فى أتباع كل الديانات التوحيدية. أبداً لم يعرف تاريخ الهنود سماء مركنتلية تتاجر بالعبيد وتعد هذا بأرض ذاك. أبداً لم يكن الغزو أو الاجتياح أو الاحتلال من أخلاقهم. «كل هذا غريب عن ثقافتهم».

فى دراسة ميدانية لهنود السهول الذين صورتهم هوليود وكل روايات التاريخ المنتصر مثلاً أعلى للعنف والعدوان يقول الأنثروبولوجى جورج غرينل:

«بين هنود السهول الذين أعرفهم جيداً يعتبر لمس العدو من أشنع أنواع التعبير عن العدوانية. أن تقوم بضرب العدو دون أن تؤذيه عمل من أعمال الفروسية. إن من مظاهر الشجاعة وتقاليدها أن يمضى الرجل إلى الحرب وليس فى يده سلاح يؤذى عدوه من بعيد، فحمل الرمح أكثر شجاعة وفروسية من حمل السهام، وحمل البلطة القصيرة أولى من حمل الرمح. أما

أعظم مظاهر الشجاعة فأن تسعى إلى الهيجا بدون سلاح».

ويروى ستانلى دايموند فى دراسته المقارنة عن «البدائية والحضارة» أن قتل الإنسان عند الهنود كان حدثاً تاريخياً، وأن حروبهم كانت تشبه الأعمال المسرحية. ومهما كانت طبيعة هذا الحدث التاريخى الذى يستوجب قتل الإنسان فإنه كان يخضع لطقس مشخصن شديد التعقيد. لقد كانوا يقدسون حياة النساء والأطفال ويعتبرون الاعتداء عليها وصمة عار فى جبين المحارب. وهذا ما جعل حرب الإبادة الإنجليزية نزهة فى رياض الطبيعة الهندية المسالمة.

خلال عودة القديسين من حملة إبادة هنود النار اغنستس فى عام ١٦٣٧ بقيادة الكابتن جون انديكوت كانوا فى أوج النشوة فأرادوا التحرش البيكو والتسلى بقتلهم. ويروى شاهد عيان أن البيكو.

«عندما رأونا على شواطئهم، أسرعوا للترحيب بنا، وهم يهتفون: أهلاً بالإنجليز، أهلاً بالانجليز (وكانوا يسمون الإنجليز أوانكس Owanux). لم يكن يخطر ببالهم ما نعده لهم. وعم الترحيب والتهليل ومظاهر الفرح بوجودنا فى كل مكان حتى وصلنا إلى نهر بكويت Pequeat. وهناك، مع سقوط أول قتلاهم، أدرك الهنود باستغراب شديد سبب وجودنا فهجروا قراهم وفروا إلى الغابات القريبة. ونزل الإحباط بالجنود فراحوا يحرقون القرى والحقول ويتلفون المحاصيل».

وما أن أعاد الجنود إلى مستعمرتهم حتى ظهر الهنود من مخابئهم ونظموا أنفسهم وهاجموا حصن سيبروك Saybrook فاقتحموه، ولكن دون أن يقتلوا أو يجرحوا أحداً. وظنوا أن هذه «البطولة الاستعراضية» كافية لاسترداد كرامتهم، ولإقناع المستعمرين بالتعايش السلمى. وبكل ما أعطاهم الله من براءة سأل هنود البيكو قائد الحصن ليون غاردينر عن إمكانية هذا التعايش السلمى، فأجابهم: «لقد دمرتم بعدوانكم هذا كل إمكانية للسلام بيننا». وسأله الهنود أيضاً ما إذا كان الإنجليز سيقتلون الأطفال والنساء،

فأجابهم «ستعرفون ذلك فى حينه». بعد أيام قليلة قاد الكابتن جون مايسون قبيل الفجر جيشاً من الميلشيا قسمه إلى فرقتين تولى قيادة إحداها بينما تولى جون أندرهيل الفرقة الثانية. وقبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود هاجموا الهنود النائمين من جبهتين. وكان ذلك بتعبير جون مايسون «آخر نوم لهم». ويصف مايسون تلك الليلة بقوله:

«لقد أنزل الرب فى قلوب الهنود رعباً شديداً، فحاولوا أن يطيروا بين أسلحتنا ويقفزوا في اللهب الذي التهم كثيراً منهم. كان الرب يضحك من أعدائه وأعداء شعبه المختار.. يضحك حتى الاستهزاء والاحتقار، ويجعل منهم وقوداً لهذا الفرن الذى تحولت إليه قريتهم. هكذا ينتقم الله منهم ويملأ الأرض بجثثهم... ليعطينا أرضهم».

كان الجنود يقتلون الجرحى من الرجال والنساء والأطفال ويشعلون النار فى البيوت ويحرقون الهنود فى أكواخهم أحياء أو موتى، وكأنهم فى حفلة شوى، «باربكيو»، بتعبير كوتون ماذر أحد أقدس أنبياء الاستعمار الإنجليزى للعالم الجديد.

استمرت حفلات «الباربكيو» طويلاً قبل أن يتعلم الهنود أن البراءة مع شعب الله الإنجليزى انتحار، وأن الدفاع عن أنفسهم يحتاج إلى معرفة طبيعة الحرب لدى أعدائهم وإلى عدم قياس نظام قيم وأخلاق الإنجليز إلى نظام قيمهم وأخلاقهم. فالإنجليزى لا يحب التمثيل المسرحى فى ساحة القتال، وإذا أراد أن يرقص فإنه ينتظر حتى ينقشع غبار المعركة ليرقص على أشلاء خصمه. لقد مضى وقت طويل قبل أن يتعلم الهنود، كما يقول جننفز فى «إجتياح أمريكا»

«إن وعد الإنجليزى مهما كان صادقاً مضموناً سوف يخلفه بمجرد أن يتعارض مع مصلحته التى لا تعرف حدوداً، وإن أسلوب الحرب الإنجليزى لا يعرف معنى للرحمة أو للشرف أو للمواثيق أو للتردد... ولقد حفظ الهنود ذلك الدرس غيباً، ولكن حين لا تنفع الدروس والعبر».

***

تعرضت الثقافة الهندية المسالمة لحملة تشويه لازمت حرب الإبادة وكانت سلاحاً من أسلحتها. لم يكتف التاريخ المنتصر بأن أطلق على غزواته واجتياحاته وحملاته العسكرية اسم «حروب الهنود» بل إنه أسقط كل عنفه وفظاعاته الدموية على الهنود بدءاً بسلخ فروة الرأس وانتهاء بالتمثيل بالجثث. إن مقتل مئة هندى أو حرق قرية هندية كاملة بمن فيها قد تحوله هوليود إلى مناسبة للضحك والتسلية، فيما هى تتسع من تلويح الهندى بيده فى وجه الرجل الأبيض دراما مخيفة تجعلها عنواناً للعنف والوحشية التى تؤهله للموت. وصورة الضحية على الغالب فتاة جميلة شقراء مذعورة، نصف عارية تكشف عن بياضها. وهى لا تختلف عن تلك التى يخطفها كنغ كونغ، وإن كانت هوليود تضفى على كنغ كونغ بعض المشاعر الإنسانية التى تشن بها على الهندى. إنهم قبل أن يسلبوا الهنود جهودهم فى الحضارة الإنسانية ويعروهم من إنسانيتهم أسقطوا عليهم أشنع فظاعاتهم كالعنف وسلخ فروة الرأس والتمثيل بالجثث وغير ذلك مما يعتبر لازماً لاعتبار إبادة ١١٢ مليون إنسان من «الأضرار الهامشية» التى تواكب انتشار الحضارة.

«ارتكب الإنجليز جريمة سلخ فروة الرأس فى معظم حروبهم». وعلى نقيض ما تروج له هوليود والرسميون والإعلاميون وأكاديمو التاريخ المنتصر «فإن الرجل الأبيض هو الذى خلق عادة السلخ (فى العالم الجديد) وإن أكثر جرائمها من صنع يديه». وكانت عادة سلخ فروة الرأس متبعة أيام الحروب الإنجليز الإيرلندية، ففى أواخر القرن السادس عشر لجأ القائد الإنجليزى همفرى جلبرت إلى قطع الرؤوس وسلخ فروتها لإثارة الذعر فى نفوس الإيرلنديين وقمع انتفاضتهم (١٥٦٧ ـ ١٥٧٠) فى فظاعات أقلها زرع جانبى الطريق إلى مقر زعيم الانتفاضة بالرؤوس المقطوعة. وقبل أن يتوجه إلى العالم الجديد، يحاول مُلكاً، خلع عليه البلاط لقب «فارس» اعترافاً ببلائه فى نشر الحضارة. ومع أنه عاد خائباً ولم يفلح فى تأسيس مستعمرته فإن مسيرته ظلت تتابع نشاطها وتمضى على خطاه إلى يومنا هذا، حتى إن الجنرال آلفرد سولى أعاد هذا المشهد بكل تفاصيله بعد حوالى ثلاثة قرون

عندما أمر بنصب الرؤوس المقطوعة لهنود اللاكوتا على عيدان ضخمة، كل رأس على عود، وزرعها على جانبى الطريق المؤدية إلى مقره العام للاستئناس وفرض الهيبة.

ولقطف الرؤوس وظائف أخرى غير الزينة أو فرض الهيبة كما كان الحال فى أيرلندا والمستعمرات الأمريكية الأولى. لقد استخدم فى البداية ـ بدلاً عن آلات الحساب الخرزية ـ للتأكد من عدد القتلى، ثم سرعان ما اكتشفت أخلاق السوق فيها وسيلة للرزق فاعتمدتها وطورتها وجعلت منها صناعة مستقلة. ويقول جننغز فى «اجتياح أمريكا» إن السلطات الاستعمارية رصدت مكافأة لمن يقتل هندياً ويأتى برأسه، ثم اكتفت بسلخ فروة الرأس إلا فى بعض المناسبات التى تريد فيها التأكد من هوية الضحية. ولعل أقدم مكافأة إنجليزية على «فروة الرأس» بدلاً من كامل الجمجمة تعود إلى عام ١٦٩٤. فى ١٢ أيلول/ سبتمبر من ذلك العام رصدت المحكمة العامة فى مستعمرة مساشوستس مكافآت مختلفة لكل من يأتى بفروة رأس هندى مهما كان عمره أو جنسه. وتختلف هذه المكافآت بحسب مقام الصياد: خمسون جنيهاً للمستوطن العادى، وعشرون جنيهاً لرجل الميليشيا، وعشرة جنيهات للجندى. ولم تمض عشرون سنة حتى رصدت كل المستعمرات الإنجليزية جوائز مماثلة. ثم تغيرت «التعرفة» فى عام ١٧٠٤ فأصبحت مئة جنيه لكل فروة رأس. ومن المفارقات أن المكافأة المتواضعة التى رصدت لفروة رأس الفرنسى فى عام ١٦٩٦، وهى ستة جنيهات فقط، لم تتغير فى التعرفة الجديدة، بل ظلت فى أسفل القائمة، وظل الفرنسى الأبيض ـ برغم عداوته الدموية للإنجليزى ـ آخر المطلوبين.

كانت مكافأة المئة جنيه تعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوى للمزارع فى مستعمرات نيو إنكلند. وكان بإمكان أى مستوطن عجوز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء هنديات سنوياً ويتنعم بما لم يتنعم به جلالة الملك جيمس. هذا ما جعل صيد الرؤوس الهندية وسلخها أسرع طريقة لبناء

الثروة، وسرعان ما وجدت «ثروة الأمم» المعادلة الاقتصادية المناسبة لاستثمار بونانزا الأرواح تجارياً. لقد اكتشف شعب الله نفطه فى عروق الهنود.

فى فالموث، أو ما يعرف اليوم ببورتلاند أسس توماس سميث إحدى هذه الشركات التى تستأجر فرقة من المغامرين لقتل الهنود والعودة برؤوسهم أو فرواتها. كان سميث يزود الفرقة بالمعدات والذخائر ويتقاضى ثلث المكافأة. وتقول إحدى صفحات يومياته إن حصته من مكافآت ذلك اليوم الكاسد (١٨ حزيران/ يونيو ١٧٥٧) بلغت ١٦٥ جنيهاً كان الصيادون يتعهدون قرى معينة، يمشطونها قرية قرية ولا يبقون فيها فروة واحدة. حتى إن القرى المكسيكية وراء الحدود صارت هدفاً للصيادين. ولأن فروة رأس الهندى «الحليف» لا تختلف عن فروة الهندى العدو، ولأن صيدها أسهل، ولأن أخلاق السوق لا تعنيها هذه التفاصيل التافهة فقد ركزت هذه التجارة جهودها على صيد رؤوس الحلفاء، ولاسيما منهم أولئك الذين تطهرت أرواحهم واستعاروا لأنفسهم أسماء القديسين. ويروى أكستل فى بحثه عن «السلخ» أن فرقة من أربعة رجال من مستوطنى نيوجرسى زعموا أنهم يصطادون هنود فيلادلفيا، لكنه فى ليلة ١٢ نيسان/ أبريل ١٧٥٦ تبين أن كل ضحاياهم كانوا من هنود المنطقة الذين أنقذ القديسون أرواحهم واستخدموهم فى أعمال السخرة. فى منتصف تلك الليلة اقتحم المستوطنون بيت عائلة هندية آمنت فآمنت ونامت قريرة العين. أما الرجل «جورج» فتمكن من الهرب، لكن الزوجة «كاثرين» تلقت بضع طلقات فى صدرها ثم قطع رأسها بالفأس. الطفلة ذات الأحد عشر ربيعاً تهشم رأسها بالبلطة وتلقت عدة طعنات فى كتفها. وأما رأس الطفل الذى لم يبلغ السنة فما كان على الله الإنجليزى بعسير.

ويروى بيتر شمالز فى كتابه عن هنود أوجيبوا كيف أن الأخوة فى الإيمان لم تكن أفضل من التحالف، وكيف أن الذين طلبوا خلاص أرواحهم فى الآخرة وطمعوا فى خلاص أجسادهم فى الدنيا صاروا فريسة سهلة للقديسين. ففى إحدى قرى دولاوير حاصرت كتيبة مسلحة بقيادة دافيد

وليامس أفراداً من الهنود المورافيين. وتمضى الشهادة فتقول إن الجنود طمأنوهم إلى أنهم جاءوا لمرافقتهم إلى حيث يصلون ويجدون طعامهم بأمان. وقالوا لهم إن هذه المهمة النبيلة لا تحتاج إلى حمل السلاح. ووافق الهنود مطمئنين إلى أخوة الإيمان. ثم إنهم أسرعوا إلى إحضار من تبقى من أهلهم وذويهم فى البيوت حتى لا تفوتهم بركات الصلاة. ولم يكن لدى الهنود وقت ليكتشفوا الخدعة إذ عاجلهم الجنود بالقتل وحصدوا فى تلك المذبحة رؤوس ٢٩ رجلاً و ٢٧ امرأة و ٣٤ طفلا.

ثم ازدهرت هذه التجارة مع الحرب الإنجليزية ـ الفرنسية فى العالم الجديد، ومع تزاحم الطرفين على شراء «الحلفاء» وتنافسهما على رفع مكافآت مرتفعة لقاء فروات رؤوس أعدائهم. وفيما كانت الشركات التجارية الإنجليزية والفرنسية توجه نشاطها الأكبر لصيد رؤوس الهنود «الحلفاء» قبل الأعداء، كانت الوعود السياسية والاقتصادية التى أمطرها البيض على الهنود قد أوقعت بعضهم فى الفخ. لم يتصور الهنود الذين أغرتهم الأطماع والوعود وقصر النظر فتعاونوا مع المستعمرين على قتل إخوانهم أنهم سيموتون بالطريقة نفسها عندما يدرك المستعمرون غايتهم منهم. لقد أغروهم بارتكاب هذه الفظاعات التى كانوا فيها أكبر الخاسرين. فخلال حرب السنوات الست (١٧٥٤ ـ ١٧٦٠) كان الإنجليز والفرنسيون هم الذين يديرون هذا المسلخ الذى لم يذبح فيه إلا الخراف.

واضطر الإنجليز إلى رفع قيمة مكافأة السلخ فى السنة الثالثة للحرب بعد أن ألحق الفرنسيون هزيمة ساحقة بالجنرال الإنجليزى إدوارد برادوك وبحلفائه من الهنود. هكذا استغنى كثير من المستوطنين عن البحث عن الذهب ليلتحقوا بمناجم السلخ، وصاروا يتنافسون فيما بينهم ويتباهون بسرعة الصيد وكثرة الغنائم. ويروى المغامر لويس وتزل Lewis Wetzel أن غنيمته من فروات رؤوس الهنود كانت لا تقل عن أربعين فروة فى الطلعة الواحدة. ويعتبر «وتزل»، وهو ابن مستوطنين مغامرين، من أبطال التاريخ

الأميركى وما يعرف بعمالقة الثغور. جرح صغيراً عندما كان أبواه يحاولان الاستيلاء على أراض هندية بالقوة. فى الرابعة عشرة دشن أول ضحاياه ونذر نفسه لقتل الهنود. لهذا لم يتزوج ولم يضيع لحظة من حياته فى عمل آخر. من بطولاته قتل زعيمين هنديين فيما كانا يجريان مفاوضات السلام مع المستعمرين، الأول زعيم الدولاوير (عام ١٨٧١)، والثانى زعيم السينيكا (عام ١٨٧٩).

بدءاً بـ «وتزل»، صار قطع رأس الهندى وسلخ فروة رأسه من الرياضيات الإنجليزية المحببة فى أمريكا، بل كان الكثير منهم يتباهى بأن ملابس صيده وأحذيته مصنوعة من جلود الهنود. ثم تغير الحال بعد عقد من الزمان عندما بدأ الإنجليز الملكيون والإنجليز الثوار يسلخون رؤوس بعضهم فى العالم الجديد فيما يدعى كل منهم وصلاً بالعناية الإلهية وينسب إليها جرائمه وفظائعه. وبالطبع فقد تنازع الطرفان على صفة الاختيار والتفضيل وتمثيل «شعب الله»، لكنهم جميعاً ظلوا مخلصين لتقليد السلخ والتمثيل بالجثث طوال فترة ما يسمى بحرب الاستقلال. كانوا ينظمون لذلك حفلات خاصة ويدعون إليها علية القوم للتفرج والاستمتاع الشهوانى بهذه المشاهد المثيرة، حتى إن الكولونيل جورج روجرز كلارك فى حفلة أقامها لسلخ ١٦ من الأسرى الأحياء أثناء حصاره الاحتفالى لفانسين Vincennes طلب من الجزارين أن يتمهلوا فى الأداء، وأن يعطوا كل تفصيل تشريحى حقه لتستمع الحامية كلها بالمشاهد. وقد وصف الكولونيل هنرى هاملتون فى يومياته بهجة الحضور بأنهم خرجوا يختالون بنشوة انتصارهم ورائحة دم الضحايا تعبق منهم. ومايزال كلارك إلى الآن رمزاً وطنياً أمريكياً وبطلاً تاريخياً، و «مايزال من ملهمى القوات الخاصة فى الجيش الأمريكى».

وفى كولورادو تولت الشركات الخاصة، بتعاقد ضمنى مع الدولة، مهمة الذبح والسلخ والقضاء على الوجود الهندى. أما فى كاليفورنيا فقد تأخرت حفلات السلخ قليلاً لكنها سرعان ما اتبعت خطوات الولايات الأخرى، ففى

حادثة واحدة (أيار/ مايو ١٨٥٢) اشترك فيها «شريف» ويفرفيل هو جم ١٤٨ هندياً من الرعاة فأصبحوا اثراً بعد عين. ثم أصبح قطع الرؤوس خبراً عادياً فى الصحافة البيضاء التى لم تعد تجد حرجاً فى الحديث عن أن هدف هذه المجازر هو «الإبادة» وأن القتلة الذين ارتكبوا هذه البطولات تلقوا مكافآت من الحكومة بعد أن أبرزوا فروات رؤوس ضحاياهم.

مع تأسيس الجيش الأميركى أصبح السلخ والتمثيل بالجثث تقليداً مؤسساتياً رسمياً. فعند استعراض الجنود أمام وليم هاريسون (الرئيس الأميركى لاحقاً) بعد انتصار ١٨١١ على الهنود، تم التمثيل ببعض الضحايا، ثم جاء دور الزعيم تيكومسه Tecumseh. وهنا تزاحم صيادو التذكارات على انتهاب ما يستطيعون من جلد هذا الزعيم التاريخى أو فروة رأسه. ويروى جون سغدن John Sugden فى كتابه عن تيكومسه كيف شرط الجنود المنتشون جلد الزعيم من ظهره إلى فخذه، وكيف أن أحدهم قص قطعة من الجلد شرائط رفيعة لربط موسى الحلاقة، وكيف تناهش الآخرون فروة رأسه حتى إن بعضهم لم يحصل على قطعة أكبر من السِنت (قطعة نقد معدنية لا يتجاوز قطرها السنتيمتر) مزينة بخصلة من شعر تيكومسه. وعندما أُجريت مقابلة مع أحد هؤلاء المحظوظين فى عام ١٨٨٦ (أى بعد ٧٥ سنة) تحدث عن تلك المناسبة التاريخية بافتخار وهو يحمل بين إصبعيه تذكاره البطولى. وكان الرئيس أندرو جاكسون الذى تزين صورته ورقة العشرين دولاراً من عشاق التمثيل بالجثث، وكان يأمر بحساب عدد قتلاه بإحصاء أنوفهم المجدوعة أو آذانهم المصلومة، وقد رعى بنفسه حفلة تمثيل بجثث ٨٠٠ هندى يتقدمهم زعيمهم مسكوجى (رد ستيكس). ففى ٢٧ آذار/ مارس ١٨١٤، كما يروى دافيد ستانارد، احتفل الرئيس جاكسون بانتصاره على هنود الكريك وتولى جنوده التمثيل بجثث الضحايا من الأطفال والنساء والرجال، فقطعوا أنوفهم لإحصاء عددهم وسلخوا جلودهم لدبغها واستخدامها فى صناعة أعنة مجدولة للخيول(٣١).

بعد مذبحة ساند كريك التى ذهب ضحيتها أكثر من ٨٠٠ هندى أعزل اضطر الكونجرس إلى إجراء تحقيق فى الفظاعات التى ارتكبها الجنود وقائدهم جون شفنجتون John Chivington. ويعتبر شفنجتون اليوم من أعظم أبطال التاريخ الأمريكى، وهناك الآن أكثر من مدينة وموقع تاريخى تخليداً لذكره ولشماره الشهير:

«اقتلوا (الهنود) و'سلخوا جلودهم. لا تتركوا صغيراً ولا كبيراً، فالقمل لا يفقس إلا من بيوض القمل».

ولعل هذه هى العبارة التى ألهمت هملر تشبيه ما جرى فى معسكرات الإبادة النازية بأنه «تنظيف قمل». وكانت الحكومة قد أعلمت الكولونيل شفنجتون بأن القرية مسالمة، وأن معظم رجالها خرجوا لصيد الجواميس، لكن الكولونيل قال: «حسناً. إننى متشوق للخوض فى الدم». وقد تحقق له ما يصبو إليه. فمع أول خيوط فجر ٢٩ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٨٦٤ زحف رجاله إلى القرية. وكان فيها رجلان من البيض حاولا إعلام الجنود بأن القرية مسالمة، لكنهما جوبها بإطلاق النار. ثم إن الزعيم بلاك كتل الذى لم يصدق أن البيض سيخرقون اتفاقيات السلام رفع العلم الأبيض فوق سارية أحد البيوت كما رفع علماً أمريكياً كان قد تلقاه من مفوض الشؤون الهندية، وراح الزعيم المخدوع بالاتفاقيات والوعود يطمئن أهل القرية ويهدئ روعهم قائلاً: «لا تخافوا.. لا تخافوا، نحن فى سلام مع البيض»!

وفيما كان الجنود يطلقون النار على أهل القرية المتراكضين فى كل الاتجاهات أعطى شفنجتون أوامره بالقصف المدفعى، ومطاردة الهاربين. ويقول روبرت بنت Rober Bent أحد مساعدى شفنجتون فى شهادته أمام الكونجرس:

«بعد القصف، حاول رجال القرية أن يجمعوا الأطفال والنساء ويحيطوا بهم لحمايتهم. ولقد شاهدت خمس نساء مختبئات تحت مقعد طويل. وعندما وصل الجنود إليهن. بدأن يتوسلن ويطلبن الرحمة لكن الجنود قتلوهن

جميعاً. وكان هناك أيضاً ثلاثون أو أربعون امرأة متكومات فوق بعضهن فى حفرة، وقد أرسلن إلينا طفلة فى السادسة تحمل راية بيضاء مربوطة على عصا، لكنها لم تتقدم بضع خطوات حتى أطلقنا عليها النار وقتلناها، كما قتلنا النساء اللواتى لم يبدين أية مقاومة. ثم إننى رأيتهن بعد ذلك مسلوخات الرأس، بينما كانت إحداهن مبقورة البطن وجنينها فى بطنها واضح للعين. وأخبرنى الكابتن شاول أنه رأى ما رأيت، ورأى مثلى عدداً كبيراً من الأطفال بين أيدى أمهاتهم المذبوحات».

ويقول شاهد آخر هو الجندى آشبرى بيرد Ashbury Bird إن

«عدد الضحايا يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠، وإنهم جميعاً تعرضوا لسلخ فروات رؤوسهم. لقد رأيت امرأة تعرض فرجها للتمثيل به، كما شاهدت جثثا مقطعة تقطيعاً فظيعاً وعدداً من الجماجم المحطمة. وإننى لعلى ثقة بأنها تحطمت بعد موت أصحابها بإطلاق النار عليهم كما هو واضح، (وهذا ما يشهد عليه أيضاً السيرجنت لوسيان بالمر Lucien Palmer). إننى لم أر قتيلاً واحداً لم يسلخ رأسه أو رأسها. لقد رأيت كذلك أصابع مقطوعة للسطو على الخواتم. كما رأيت عدداً من الجثث وقد قطعت أعضاؤها التناسلية».

وتقول شهادة عاموس مليكش Amos C. Milksch:

«رأيت طفلاً حياً بين الجثث المرمية فى الخندق. ورأيت جندياً من الفرقة الثالثة يستل مسدسه ويطلق النار على رأس الطفل. رأيت ضحايا مقطعة الأصابع للسطو على خواتمها، ومقطعة الآذان للسطو على زينتها، ورأيت عدداً من الجنود ينبشون جثثاً تم دفنها ليلاً، وذلك ليسلخوها وليأخذوا زينتها. ورأيت امرأة هندية مهشمة الرأس. وفى الصباح التالى، بعد أن تيبست الجثث، بدأ الجنود بسحب جثث النساء و «فتحهن» بطريقة مشينة».

وشهد دافيد لودرباك David Lauderback أحد الفرسان أن

«جثث النساء والأطفال تم التمثيل بها بطريقة مخيفة. لقد رأيت ثمانى منها فقط، ولم أجد فى نفسى الشجاعة لرؤية المزيد فقد كانت شديدة التقطيع، وكانت مسلوخة الرؤوس. أما الزعيم وايت أنتلوب (الظبى الأبيض) فإنه كان مقطوع الأنف والأذنين والأعضاء التناسلية».

ويقول المترجم جون سميث John Smith:

«لقد مارسوا كل أنواع السلب والنهب؛ سلخوهم، واقتلعوا أدمغتهم. واستخدم الجنود سكاكينهم لتمزيق أجساد النساء وشقهن، ولتعذيب الأطفال ودق رؤوسهم بأعقاب البنادق واقتلاع أدمغتهم والتمثيل بأجسادهم. إن أسوأ تمثيل رأيته فى حياتى هو تقطيع النساء إلى قطع صغيرة وتمزيق جثث الرضع الصغار ذوى الشهرين أو ثلاثة أشهر. وعندما ذهبت إلى مكان المذبحة فى اليوم التالى لم أر جسداً واحداً إلا وقد سُلخ وقطعت أعضاؤه التناسلية».

ويقول الليوتننت جيمس كانون James D. Cannon:

«سمعت جندياً يقول إنه اقتطع فرج امرأة وعلقه على عود لعرضه. وسمعت آخر يقول إنه قطع أصابع هندية ليأخذ خواتمها. كما سمعت جنوداً قالوا إنهم اقتطعوا فرج الهنديات وشدوها على مقدمات سروج خيولهم أو عرضوها (كالنياشين) على قبعاتهم أثناء الاستعراض العسكرى. وسمعت جندياً يقول إنه شق قلب امرأة هندية ورفعه على عود».

بعد انتهاء «المهمة» عقد الكولونيل شفنجتون مؤتمراً صحافياً أعلن فيه أنه خاض مع رجاله «إحدى أكثر المعارك دموية مع الهنود، حيث تم تدمير أعتى قرى هنود الشايين!» فيما عمت النشوة بين الزنابير فى طول البلاد وعرضها وخرجت مسيرات الفرح والتأييد فى الشوارع حتى أن افتتاحية إحدى الصحف شبهت فروات الرؤوس المقطوعة والمتناثرة هنا وهناك بالضفادع التى اجتاحت مصر قبل خروج بنى إسرائيل منها، وأضافت «ليس

هناك أحد لم يتمتع بقطعة من فراء رؤوس هنود الشايين، وهناك من بلغت به النشوة أن أرسلها إلى (أصدقائه فى) الشرق». وبالطبع أنهت لجنة تحقيق الكونجرس تحقيقاتها باستهجان المجزرة وعدم معاقبة أحد. أما الرئيس تيودور روزفلت فإنه تسامى بهذه البطولات فوصفها بقوله «إن مذبحة ساند كريك كانت عملاً أخلاقياً ومفيداً (ذلك لأن) إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لا مفر منها».

وفى عام المذبحة اكتشف أحد صيادى الأرواح إمكانية استخدام الأعضاء الذكرية أكياساً للتبغ. ثم تطورت الفكرة المثيرة من هواية فردية للصيادين إلى صناعة رائجة بعد أن صار «كيس التبغ» هذا، مثل الشارين، من أبرز علامات الرجولة والفروسية والارستقراطية الاستعمارية، وصار الناس يتهادونه فى أعيادهم وأفراحهم. لكن هذه الصناعة لم تعمر طويلاً فى داخل أمريكا بعد أن انخفض عدد الهنود فى عام ١٩٠٠ إلى ربع مليون، وضاق وجه الأرض الأمريكية بالسلخ وقطع الرؤوس ولم يعد أمام الحضارة إلا أن تبحث وراء المحيط عن مجاهل جديدة ووحوش طازجة فى باناما والفيلبين واليابان وهايتى وكوريا وفيتنام وبلاد العرب.

***

فى أربعينيات القرن العشرين دخلت اليابان أطلس المجاهل وانضم اليابانيون إلى قائمة الشعوب المتوحشة. وسرعان ما صنفت دائرة الأنثروبولوجيا فى مؤسسة سميسونيان الثقافية اليابانيين مع الأعراق المنحطة. ففى رسالة وزعتها على المسؤولين الأمريكيين أكدت فيها «أن جمجمة اليابانى متخلفة عن جمجمتنا (الأنكلوسكسونية) أكثر من ألفى سنة»، بينما قال العسكريون «إن اليابانيين ليس فيهم طيارون مؤهلون قادرون على التصويب فى اتجاه الهدف لأن عيونهم مشوهة منحرفة». وكانت حملة «التوحيش»، كالعادة، رخصة للتحلل من أى التزام أخلاقى أو إنسانى أو قانونى تجاه الضحايا. ويروى مراسل حربى أميركى فى مقالة له فى

:Atlantic Momthly

«لقد قتلنا الأسرى بدم بارد، ومحونا المستشفيات من الوجود، وأغرقنا مراكب الإنقاذ، وقتلنا المدنيين وعذبناهم، وأجهزنا على الجرحى، وجرفناهم إلى حفر جماعية. وهناك فى الهادى سلقنا لحم جماجم أعدائنا لنصنع منها عاديات تذكارية توضع على الطاولات وتهدى إلى الأحباب، أو صنعنا من عظامهم سكاكين لفتح الرسائل».

وكانت أعظم غنائم المحاربين هى هذه التذكارات التى يجمعها الجنود من جثث الضحايا أو المحتضرين كما يروى جون دوور فى كتابه عن ظاهرة العنصرية فى حروب الهادى «حرب بلا رحمة». من ذلك الأسنان الذهبية، الآذان، العظام، فروات الرؤوس، والجماجم وغير ذلك من تذكارات فيتيشية طالما اعتبرها علماء الاجتماع العرقى دليلاً على العقلية البدائية التى تعبد الجماد وتتعلق به مرضاً وجنسياً. وقد لاقت هذه «الدكاكير» ترحيباً كبيراً لدى الشعب الأمريكى حتى إن مجلة لايف نشرت فى عام ١٩٤٤ موضوعاً عن الحرب مزيناً بصفحة كاملة لصورة صبية شقراء يفتر ثغرها عن بسمة السعادة والفخار وهى تقف إلى جانب جمجمة يابانية أرسلها إليها خطيبها من الجبهة. ويبدو أن عبادة الدكاكير طقس قديم يعود على الأقل إلى عام ١٨١٤ عندما أشرف الرئيس جاكسون بنفسه على سلخ ٨٠٠ من هنود الكريك، واقترح أن ترسل قطع من تلك الجثث هدايا إلى السيدات الأرستقراطيات فى تنسى.

بعد أقل من عقدين مضيا على نشر صورة «الحسناء والجمجمة» فى مجلة لايف وصف الجنرال وستمورلند William Westmorland الشعب الفييتنامى بالنمل الأبيض termite. والنملة البيضاء أخطر حشرة يخشى الأمريكى أذاها على بيته، ولذا فهى مرتبطة فى ذهنه بحتمية وشرعية وأخلاقية مكافحتها بمبيدات الحشرات. فى هذا السياق التاريخى الطويل من إبادة الحشرات على مدى أكثر من أربعة قرون، يستخدم الجنرال هنا

سلاح الإبادة دون أى رغبة فى أن يعرف شكل ضحاياه أو عددهم. ولقد سهل القصف الجوى وإطلاق الصواريخ عن بعد والقتل الإلكترونى هذه المهمة حتى جعلها أشبه بلعب التسلية. إن الفلاح الفييتنامى تحول إلى نملة بيضاء، مثلما تحول الهندى إلى دودة، والفيليبينى إلى حشرة، والعربى العراقى إلى صرصار. هكذا لم يجد الجنود حرجاً فى الاحتفاظ ببعض أعضاء هؤلاء الفييتناميين الحشرات تذكاراً كما فعل آباؤهم فى الحرب العالمية الثانية.

ليس غريباً إذن أن لا يجدوا فرقاً بين مجاهل العالم الجديد ومجاهل فييتنام وأن يطلقوا على هذه الجبهة الجديدة اسم «البلاد الهندية». وكان هيومانكه Hugh Manke رئيس قسم المتطوعين الدوليين، فى شهادة له أمام الكونجرس، عام ١٩٧١، قد أكد على عزم القوات الأميركية على إبادة فييتناميى الجبال واحداً بعد الآخر، وقال «إننا سنحل مشاكلتهم كما فعلنا مع الهنود». بل إن الجنرال مكسويل تايلور Maxwell Taylor وصف الفييتكونج فى شهادته أمام الكونجرس بأنهم «هنود» وأنهم لذلك «ليسوا بأفضل من قمل يغزو جلد الكلاب». أما السفارة الأميركية فى سايغون فوصفتهم على لسان ضابط علاقاتها العامة جون مكلين John Mecklin بأن عقولهم تعمل كما تعمل السيقان الرخوة للطفل المشلول، وأن محاكماتهم العقلية لا تضاهى طفلاً أمريكياً فى السادسة من عمره. وكانت قناة History التلفزيونية قد عرضت (١٣ تموز ١٩٩٦) شكلاً حديثاً متطوراً من مشاهد السلخ فى فيلم وثائقى بعنوان قيام العنقاء Rising Phoenix نرى فيه الجنود الأميركيين فى فييتنام وهم «يقطفون» رؤوس ما يشتبه بأنهم من كوادر الفييتكونج، ويعرضونها فى مهمة أشرفت عليها وكالة الاستخبارات المركزية فى أواخر ١٩٦٧ وأطلقت عليها عملية العنقاء Operation Phoenix.

وتتضارب الأرقام النهائية لعدد ضحايا العنقاء بين شهادة وأخرى. فبينما يعترف وليم كولبى، وكان يومها يدير عمليات السى آى إيه فى الفييتنام، بأن حصيلة قتلاها بين المدنيين فى نهاية ١٩٧١ بلغت ٢٠٥٨٧ و ٢٨٩٧٨

معتقلاً (تبين لاحقاً انهم أبيدوا) و ١٧٧١٧ تولت أمرهم حكومة سايغون، يقول تقرير لجنة تشيرش Church (لعام ١٩٧٦) إن عدد قتلى عملية العنقاء من المدنيين بين ١٩٦٨ و ١٩٧٠ زاد على العشرين ألفاً. أما وزارة الدفاع فتعترف بأن عدد قتلى تلك العملية من المدنيين فى فييتنام الجنوبية كان ٢٦٣٦٩ بينما بلغ عدد المعتقلين ٣٣٣٥٨. ويتحدث روى بروسترمن Roy Prosterman أستاذ القانون فى جامعة واشنطن عن نشاطات جانبية لعملية العنقاء خاصة بإصلاح الأراضى فى فييتنام والفلبين والسلفادور فيقول إن عدد ضحايا فييتنام وحدها من هذه العملية ما بين ١٩٦٨ ومنتصف ١٩٧١ زاد على الأربعين ألفاً. ومهما كانت حقيقة الأرقام فإن برنامج العملية يقتضى تصفية كل من يشتبه بأنه من الفييتكونج أو يتعاطف معهم بمعدل ١٨٠٠ فييتنامى شهرياً على أقل تقدير. وكان المدنيون المشتبه بتعاطفهم مع الفييتكونج أكبر الضحايا فقد كانوا يعتقلون بالآلاف ويقتلون تحت التعذيب. ويروى بارتون أوسبورن أحد ضباط العملية فى شهادة له أمام لجنة الكونجرس للشؤون العسكرية لعام ١٩٧٣ صورة مما كان يجرى أثناء التحقيق فيقول:

«كنت أنظر فى قضية مشتبه يقول أحد عملائى إنه متعاطف مع الفييتكونج. وكان التحقيق يجرى فى مجمع التجسس المضاد لفرق المارينز. وحين دخلت لمتابعة ما يجرى كان الرجل قد فارق الحياة بعد أن دكوا فى فتحة أذنه سيخاً حديدياً طوله ست بوصات اخترق دماغه وقتله.. لقد كانت حرب إبادة منظمة».

وتصف مجلة Counterspy فى عدد ربيع/ صيف ١٩٧٥ عملية العنقاء بأنها: «أكبر برنامج للقتل الجماعى المنظم شهده العالم منذ معسكرات الموت النازية».

فى ١٦ آذار/ مارس ١٩٦٨ دخلت مجموعة من الكتيبة ١١ قرية «ماى لاى» فقتلت ٣٤٧ عجوزاً وامرأة وطفلاً رضيعاً، ثم إن المشاة أحرقوا البيوت والأكواخ بمن فيها من البشر. وهنأ الجنرال وستمورلند هذه المجموعة لعملها

الممتاز outstadin action، وتبادل الرسميون الأنخاب ابتهاجاً فى المركز الرئيسى ساعة الكوكتيل. وفى يوم المجزرة نفسه هاجمت مجموعة أخرى من هذه الكتيبة قرية «ماى خه ٤»، وفتحت نيرانها على طريقة أفلام الكاوبوى. فى هذه المجزرة تولت مجموعة صغيرة من الجنود تكويم الجثث التى قالوا إنها لا تزيد على المئة: «لقد بسطنا الأرض فى تلك القرية بالديناميت والنار، ثم ألقينا حفنة من القش فوق أكوام الجثث». وفى اليوم التالى زحفت هذه المجموعة عبر شبه جزيرة باتنغن Batangan، جنوب بحر الصين، وراحت تحرق كل قرية تعبرها، وتقتل كل ما يدب فيه الروح من الجواميس والخنازير والبط والدجاج والبشر، وتدمر المحاصيل. وقد قال أحد أبطال هذه «الأضرار الهامشية»: «ما فعلناه هنا ليس استثناء. لقد فعلناه فى كل مكان». وقال آخر: «لقد كنا نتسلى».

بعد أن كشف سيمور هيرش Seymour Hirsh عن تفاصيل هذه البطولات (من خلال تقرير الكونجرس المؤلف من ٤٠ مجلداً) تشجعت الصحافة على فتح هذا الملف الدموى الذى أدى فى النهاية إلى اتهام وسائل الإعلام بأنها وراء خسارة حرب فييتنام، كما أدى لاحقاً إلى تبنى استراتيجية إعلامية جديدة لحروب المستقبل يتفرد فيها البنتاجون على مستوى العالم بتوزيع ما يشاء من المعلومات التى تحاول تجنب أى ذكر للضحايا والتركيز على براعة التكنولوجيا الحربية فى إصابة الأهداف. وفعلاً فإن الكشف المستمر عن تفاصيل هذا الملف الدامى كان وراء تنامى القوى المعارضة للحرب التى تبين لها كما يقول بروس شايرو أن مذابح المدنيين وتعمد قصف المستشفيات وسيارات الإسعاف وحرق القرى بمن فيها ومختلف جرائم الحرب كانت عملا روتينياً مستمراً.

فى كتابه عن مذبحة «ماى لاى»، يروى سيمور هيرش (والكلام عن هذه المذبحة كله هنا مقتبس من كتابيه Cover Up و My Lai 4 الحائز على جائزة بولتيزار) أن الطيار هيومسون Hugh Thompson كان يحلق بطائرة الهيلوكبتر

الصغيرة صباح ١٦ آذار/ مارس ١٩٦٨ فوق منطقة ماى لاى. وما أن اقترب من قرية سونغ ماى حتى رأى الأرض مزروعة بالقتلى والجرحى من دون أى إشارة تدل على وجود قوة معادية، (المنطقة تقع داخل فييتنام الجنوبية «الحليفة» التى «تستضيف» الجيش الأميركى والضحايا كلهم من مواطنيها). وظن الطيار أن أفضل ما يستطيع فعله هو تحديد المكان بالدخان حتى يسرع الجنود على الأرض للنجدة والمساعدة. وكان أول ما فعل أن حدد مكان فتاة مصابة بطلقات فى بطنها ومبطوحة على حافة السياج فيما كان نصفها السفلى فوق حقل الرز. ولدهشته فإن الجنود أسرعوا إلى الفتاة ليجهزوا عليها لا ليسعفوها، فقد أفرغوا فى رأسها عدة طلقات. وتكررت القصة مرتين أجهز فيها الجنود على طفلين دون العاشرة قبل أن يصحو تومسون من كابوسه. ويقول مساعدة لارى كولبرون Lari Colburn، وكان يومها فى الثامنة عشرة من عمره، إن الجنود كانوا يقتلون كل ما تدب فيه الحياة.

ويقول أحد جنود الأرض إنه شاهد سيدة عجوزاً فى سريرها تفارق الحياة، وكان هنالك راهب بجانبها يصلى لها. وقد أمره الضابط المسؤول أن يسأل الراهب العجوز عن الفييتكونغ. ولما أنكر الراهب أى علاقة له بهم جره الضابط المسؤول وليم كالى Lieutenant William Calley إلى الخارج وبطحه فوق حقل الرز. كان الراهب يتوسل إليه أن يبقى على حياته عندما أطلق كالى عليه النار. ثم إن كالى أصدر أمره برمى كل من تبقى من أهل القرية الأحياء فى الخندق وإطلاق النار عليهم. وروى شاهد عيان أن كالى كان يجر بيديه النساء والأطفال إلى الخندق ويطلق عليهم النار قبل أن يستجيب الجنود لأمره ويساعدوه (على «نشر الحضارة وطريقة حياتها»). وقال شاهد آخر: لقد دفعنا كل من وجدناه أمامنا من أهل القرية فى الخندق وأطلقنا عليهم النار. وشاهدنا كيف حاولت الأمهات إنقاذ أطفالهن عبثاً وكيف كان الأطفال يتلبون بأمهاتهم ويبكون. كان تومسون يحلق فوق المنطقة ويرى الجثث المترامية فوق الأرض وفى عدد من الخنادق المحفورة. وعندما رأى

مجموعة من النساء والأطفال محاصرين فى مكمن عسكرى قرب خندق محفور لتصريف المياه والأقذار هبط بطائرته لمساعدتهم، لكن كالى وجنوده أسرعوا إليه. وكان مما قاله كالى لتومسون: إن أفضل طريقة لمساعدة هؤلاء الأشقياء هى أن تلقى قنبلة عليهم. ولما هم تومسون بإنقاذ بعضهم عاجلهم كالى وجنوده بإطلاق النار. ويقول أحد مساعدى تومسون:

«إن الجثث كانت كالنمل، كأن هناك من سمم مياه الشرب، وكأن كل من فى القرية شرب من هذه المياه المسمومة وسقط صريعاً. لقد استغرق دفن القتلى أكثر من خمسة أيام».

وكان جوزيف ستريك قد أجرى لقاءات مطولة مع «أبطال» ماى لاى، ونشرها فى كتاب نال الجائزة الأكاديمية للتوثيق لعام ١٩٧١. وكان مما جاء على لسان فردانو سمبسون Verdano Simson:

«كانوا يمثلون بالجثث وبكل شئ. كانوا يشنقونها أو يسلخونها. وكانوا يستمتعون بذلك. يستمتعون بذلك بكل معنى الكلمة. وكانوا يتلذذون بقطع حناجرهم».

وقال شاهد آخر هو جيمس برغثولد: كانوا يقطعون آذان الضحايا وأشياء أخرى مثل هذا هنا (مشيراً إلى ما بين فخذيه). أما غارفولو Gray Garfolo فربط قصة المذبحة بجذورها حين قال: «إنه السلخ، كما تعلم.. السلخ، مثل حال الهنود. بعض الناس هناك كانوا فى رحلة هندية». وأضاف روبرت كروش أن رئيسه قال له: «لا أريد أسرى. أريد إحصاء للجثث». «لقد كنا نعتبر كل من هو فوق الثانية عشرة مشروع جثة». وفى مكان آخر قال أحد المحاربين

«كنا هناك نطهر المكان مستخدمين الشعار المعروف «الهندى الصالح هو الهندى الميت». ولقد كان جنود المارينز هناك يعتقدون أنهم جاءوا لكى «يخوزقوا» المتوحشين fucling savages».

ويروى ريتشارد بويل Richard Boyle فى كتابه «زهرة التنين Flower of the Dragon» . والكلام هنا من كتابى هيرش . أن مجزرة «ماى لاى» لم تكن جريمة شخص واحد، ولا جريمة فرقة واحدة. إنها مذبحة واحدة من مذابح كثيرة منظمة ومدبرة بدقة من قبل قيادات سياسية وعسكرية رفيعة المستوى، وذلك بهدف إرهاب القرويين والحيلولة دون تعاونهم مع الفيتكونج. ويستشهد بما قاله وليم كورسون William Corson أحد المسؤولين عن هذه المجزرة: «لقد اتفقنا مع حكومة فييتنام الجنوبية على أن ندمر تدميراً حرفياً وفعلياً كل أمل أو طموح لدى أكثر من ٣٠ ألف إنسان. إنها لم تكن مجزرة. لقد كانت حرب إبادة genocide».

«إن جيل أبى . والكلام لبويل . يستغرب اليوم كيف أن جيلى لم يعد يحترم تلك التقاليد والبطولات التى جعلت أميركا أمة عظيمة. إنهم لم يقولوا لنا إن إبادة الشعوب كانت عصب هذه التقاليد والبطولات وإن الجنود الأميركيين سلخوا مئات فروات الرؤوس فى مذبحة ساند كريك، ورفعوا تلك الفروات فى دار الأوبرا فى لايك سيتى ابتهاجاً. لم يقولوا لنا إن المئات من الهنود ذبحوا فى «ووندنى» وإن الجنرال جاكوب سميث Jacob Smith أمر بذبح ٨٢٩٤ طفلاً، و ٢٧١٤ امرأة، و ٤٢٠ رجلاً فى جزيرة سامار Samar أيام الاحتلال الأميركى للفيلبين».

وكانت «النيويورك تايمز» فى أواخر نيسان/ أبريل ٢٠٠١ قد كشفت عن مجزرة لم يكن أحد ليذكرها لولا أن بطلها أصبح عضواً فى مجلس الشيوخ. وقد ارتكبها السناتور بوب كيرى فى شباط/ فبراير ١٩٦٩ عندما كان ضابطاً بحرياً متطوعاً فى حرب فييتنام ونال جزاء بطولتها وسام النجم البرونزى. ويروى غير هارد كلان أحد الذين شاركوا فى هذه المجزرة كيف أن السناتور بوب كيرى الذى كان يعده الحزب الديمقراطى لخوض انتخابات الرئاسة المقبلة قادهم فى تلك الليلة إلى قرية ثونه فونغ حيث جمعوا ١٣ امرأة وطفلاً وأطلقوا عليهم النار بدم بارد، وكيف أنهم بعد سقوط القتلى سمعوا طفلاً

يبكى بين الضحايا فعاجلوه بالرصاص الكثيف. وقال إنهم بينما كانوا فى طريقهم إلى مكان المجزرة مروا بكوخ فيه عجوزان وثلاثة أطفال فطعنوهم جميعاً بالسكاكين ثم قطعوا حناجرهم.

فى ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٧١ أجرى كروسبى مويس مراسل «واشنطن إيفننغ ستار» لقاء مع السناتور جون كيرى زميل بوب كيرى فى القتال وفى مجلس الشيوخ، سأله فيه:

كروسبى مويس ـ لقد ذكرت فى أكثر من مناسبة أن سياساتنا فى فييتنام لا تختلف عن حرب الإبادة tantamount to genocide، وأن المسؤولية تقع على كافة مستويات قياداتنا. هل قمت أنت شخصياً ـ كضابط بحرية شارك فى حرب فييتنام ـ بارتكاب فظاعات أو جرائم يعاقب عليها قانون هذا البلد؟

جون كيرى ـ لقد كان هناك كل ما يخطر على بالك من هذه الفظاعات والجرائم، وأحب أن أعترف بأننى نعم، نعم، ارتكبت مثل هذه الفظاعات والجرائم مثل الآلاف من الجنود... لقد شاركت فى مهمات قتل، وتدمير، وإحراق قرى. وهذا كله انتهاك لقوانين الحرب واتفاقيات جنيف، وكل ذلك تم بناء على أوامر مكتوبة وفقاً لسياسة حكومة الولايات المتحدة من قمة الهرم حتى القاعدة.. وإننى أعتقد أن الرجال الذين رسموا هذه السياسة، الرجال الذين صمموا منطقة النار الحرة، الرجال الذين أعطونا الأوامر، الرجال الذين وقعوا على أوامر القصف الجوى، أعتقد أن هؤلاء الرجال... مجرمو حرب.

فى الساعات الأخيرة من وجودهم فى فييتنام، وبعد أن ألقوا عليها ١٤ مليون طن من القنابل، انصب كل جهد الدولة الأميركية على إنقاذ الزنابير «البيض». لم يتخلوا عن حلفائهم الفييتناميين وحسب بل تخلوا حتى عن جنودهم الملونين وعن كل ما ليس بأبيض من المئات من موظفيهم المتجمعين فى Hotel Duc والآلاف من عملائهم المحتشدين أمام السفارة. وكان الأمر الصادر من الدولة الأميركية حاسماً وواضحاً: «أنقذوا السادة أصحاب

البشرة البيضاء Save the gentlemen in the white skin». وقبل أن تقلع الهيلوكبتر بالقنصل هنرى بودرو Henry Boudreau من سطح السفارة، أطل من عليائه وتفحص الحشود فى مبرك السيارات وقال بكثير من الارتياح: «لم أر أى وجه أبيض هناك».

***

منذ ترومن حتى بوس، حاول كل رؤساء أميركا الحديثة التوسع فى غرب «الغرب الأميركى» وحيثما شاء «القدر المتجلى». لقد حاولوا التصدى للشيوعية والتوسع الصينى وبسط سيطرتهم على منابع النفط العربية. وهم فى كل خطوة من هذا التوسع «لم يتخلوا قيد أنملة عن السياق التاريخى العنصرى والدموى» كما يوضح دانيال إلسيرغ. لقد تحكمت عقدة الاختيار والتفوق بسلوكهم وبنادقهم فأوهمتهم بأنهم يملكون حق تقرير الحياة والموت لكل من عداهم، وأنهم فى حل من أى التزام إنسانى أو قانونى تجاه الشعوب التى يستعمرونها، لا باعتبار أنها أعراق منحطة وحسب بل لأنها فى الغالب مخلوقات متوحشة لا تنتمى للنوع الإنسانى. إن ميتافيزياء كراهية الهنود (لدى الزنابير) . كما يقول هرمن ملفيل . استحكمت بطقس «التضحية بالآخر». وهذا ما جعل أميركا تعيش بضحاياها، ولا يمكن فهم حروبها وعلاقاتها الدولية إلا بالبحث عن ينابيع طقوسها الخاصة بالتضحية بالآخر.

عندما تحرش القديسون بهنود البيكو فى ٥ حزيران (؟)/ يونيو عام ١٦٣٧ وشووا أجسادهم بالنار قالوا إنهم كانوا يتسلون، وأن ما جرى كان أشبه بحفلة شوى «باربكيو». ويعد مذبحة مايبول Maypole ذلك العام سكر الحاكم برادفورد وسكر معه القديسون حتى الثمالة، ورقصوا وغنوا أياماً بلياليها، وعاشروا نساء الهنود آخر معاشرة فى حياتهن. ومع منتصف القرن السابع عشر

«صار صيد الهندى من أمتع رياضات التسلية فى نيوإنغلاند، فما أن يتم القبض على هذا الوحش حتى يتم تمزيق جسده أو إطعامه للكلاب. هكذا

كان يتم صيد آلاف الهنود سنوياً فى ألعاب تسلية كانت تعتبر من الرياضات الشعبية فى نيوإنغلاند».

فى تلك الفترة التجريبية للتسلى بصيد الأرواح يروى شاهد عيان يدعى جون إيستون قصة اصطياد هندى عجوز لم يعد قادراً على المشى فيقول:

«لقد تسلى الجنود بتعذيب هذا العاجز لأكثر من ساعة، ثم قرروا أن يقتلوه. بعضهم ارتأى إطعامه للكلاب.. غير أن الرحماء منهم انتصروا فى النهاية واكتفوا بقطع رأسه».

وفى عام ١٩٦٨ عندما اقتحمت قوة أميركية شبه جزيرة باتنجن Batangan وراحت تحرق القرى وتقتل فلول الفييتاميين الفارين من أذاها قال أحد القتلة: «لقد أمضينا وقتاً سعيداً هناك وتسلينا». وفى فبراير ١٩٩١ كانت الطائرات تطلق النار على طوابير العراقيين المنسحبين إلى البصرة. وفى خبر من على متن USS Ranger قال أحد الطيارين: «لقد كنا نزجى الوقت فى صيد طيور التركى». وقال آخر: «لقد تسلينا. كان قتلهم أشبه بصيد السمك من البراميل». ذلك هو طقس التضحية بالآخر الذى رافق نشوء أميركا وتاريخها لحظة لحظة، وتلك هى ضحاياها كما يقول الزعيم سياتل فى عام ١٨٥٤: قبيلة تمضى على أعقاب قبيلة، وأمة تلحق بأمة، كأنهم موج البحر.

فى ربيع ١٩٩١ أرسل لى صديق من «الحركة الهندية» دعوة لحضور نقل رفات «العصفورة الضائعة» من لوس أنجلس إلى مسقط رأسها فى داكوتا الجنوبية بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لمذبحة «ووندنى». وأرفق الدعوة بصورة فتاة هندية طويلة الضفائر ترفل بثياب هندية مشنشلة مهدبة الحواشى، وتزين عنقها وصدرها بحلى هندية تقليدية. صورة شاحبة اللون تعود إلى أول القرن، تقف فيها الفتاة وقفة استعراضية تذكرك بمشيقات شارلى شابلن فى أفلامه الصامتة. وعلى الصورة ستة أسطر قصيرة تقول:

«ضيعت أهلها في معركة مأساوية. وضيعت ثقافة أهلاها في ذلك المجتمع المتعصب. وضيعت دربها وهي تكافح من أجل العيش». كانت الفتاة في عامها الأول حين ساقها القدر إلى مرابع هنود لاكوتا في «ووندني كريك» يوم المذبحة الشهيرة (٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩٠). وهناك قتلت أمها مع مئات الأمهات والأطفال، لكنها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة استطاعت أن تجرجر جسدها فوق أسيج وتتوارى بطفلتها عن الأنظار عند ضفة الجدول القريب. بعد أربعة أيام، اكتشف شاهد المذبحة شارل إيستمن (أوهي ييسا) الطبيب الأديب نصف الهندي تلك الفتاة تحت جثة أمها تحاول الرضاعة من ثدييها المتجلد. ثم تهافت الزنابير على تبنيها والاحتفاظ بها كممجزة تذكارية من تلك المذبحة التاريخية إلى أن انتهت في بيت الجنرال ليونارد كولبي وزوجته كلارا. وبالطبع لم يكن هناك من يعرف اسمها فقد قتل اسمها ودفن مع أمها تحت ثرى وثلج «ووندني». ولهذا أطلق عليها اسم «زينتكا لانوني» ويعني بلغة هنود لاكوتا «العصفورة الضائعة». هكذا فتحت زينتكا عيونها لتعيش حياة مغمسة بالعنصرية في مجتمع «غريب» لم يرحمها. وباستثناء كلارا الاتي عطفت عليها وأحبتها فقد لسعها كل من حولها من الزنابير، وفي مقدمهم الجنرال الذي تخلى عن زوجته ليعاشر مربية البيت. وهذا ما اضطرها إلى الهرب ثلاث مرات، مضت في إحداها إلى مقبرة «ووندني» الجماعية ورمت بنفسها فوق تربتها. ولما بلغت «العصفورة الضائعة» السابعة عشرة أرسلت لتعيش مع الجنرال وزوجته الجديدة في نبراسكا، فعبث بها. ثم إنها لما حملت رماها في إصلاحية للأحداث ظلت فيها سنة بعد أن وضعت جنيناً ميتاً. وفي تلك السنة تزوجت زينتكا لتكتشف أن زوجها مصاب بالزهري الذي لم يكن الطب يعرف له شفاء فعانت منه ومن الفقر ومن لسع الزنابير إلى أن ماتت في التاسعة والعشرين. في تموز/ يوليو ١٩٩١ نقل رفات «العصفورة الضائعة» من لوس أنجلس ليدفن بالقرب من القبر الجماعي لضحايا «ووندني».

في كتاب «ناشد الرؤى» Seeker of Visions يقول لايم دير Lame Deer

(الغزال الكسيح) حكيم هنودسو:

«رأيت صوراً من مذابح «سونغ ماى» و «ماى لاى» (فى فييتنام)؛ رأيت صور الأمهات الذبيحات وأطفالهن يرضعون من أثدائهن، وتذكرت جدى غودفوكس (الثعلب الطيب) يخبرنى عن الأم الذبيحة فوق ثلج «ووندنى» وطفلتها التى ترضع من ثديها البارد. إنها صورة واحدة. لم يتغير شئ سوى المكان. كل ما هنالك أن ثدى «ماى لاى» كان حاراً، أما ثدى «ووندنى» فكان بارداً متجمداً. هذا هو الفرق الوحيد» بين صورة الأمس وصورة اليوم.

هذه الصورة، صورة الجرائم الطقسية التى رافقت رحلة الزنابير من مستعمرة بليموث إلى «ماى لاى»، ومن قرى البيكو إلى قرى أفغانستان هى العقد الذى ينتظم كل تاريخ أميركا، وهى تفسيرها وعلتها وسبب وجودها raison d'etre. بدون هذه الجرائم الطقسية تفقد فكرة أميركا معناها (فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة) فوجودها من وجود هذه الجرائم الطقسية وعدمها من عدمها. إن تكرار هذه الصورة فى كل بقعة غزاها الزنابير ليست مصادفات عبثية. وإن تسمية كثير من الأسلحة والطلعات الجوية بأسماء هندية مثل «توماهوك» و «كريزى هورس» و «رولينغ ثندر» و «هيكورى» ليست إلا تأكيداً على ميتافيزياء كراهية الهنود (الكنعانيين) التى صاغت فكرة أميركا ورافقت نار حروبها على مدى أربعة قرون.

فى ستينيات القرن العشرين كانت ولاعات Zippo فى جيوب الجنود جاهزة لحرق معظم القرى التى مروا بها. وكان الاسم الدلع لقاذفات اللهب من الدبابات أيضاً Zippo. كذلك كان اسم الدبابات التنينية التى كانت تقذف النابالم الحارق لتطهير الأرض من «النمل الأبيض» الفييتنامى واسم تلك القنبلة الرشيقة الوثابة Command Vault التى تزن سبعة أطنان ونصف الطن وتمحو كل ما على وجه الأرض فى مساحة تقدر بضعف مساحة ملعب كرة القدم. إنها الصورة التكنولوجية المتطورة من «باريكيو» كوتون ماذر ومن صورة قرى البيكو التى تحولت إلى أفران بشرية. وإنها «الأضرار الهامشية» اللازمة دائماً

لتمدين المجاهل ولانتشار الحضارة وطريقة حياتها بين الوحوش. عندما أرسلت الرابطة الأميريكية لتقدم العلوم عالم الحيوانات الشهير E. W. Pffeiffer إلى الهند الصينية لدراسة هذه «الأضرار الهامشية» عاد ليروى مشاهداته عن الدمار الجهنمي والتعرية الجماعية لكل ما في فييتنام من شجر ونبات ومحاصيل زراعية، وعن عشرات ملايين الحفر البركانية التي أحدثتها هذه القنبلة الوثابة التي تعتبر مثل سكينة المطبخ مقارنة بالقنابل التي ألقيت على العراق أو على يوغسلافيا أو أفغانستان (والقادم أعظم). وكانت الواشنطن بوست (٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١) قد نقلت بعض ملاحظات هذا العالم فقالت:

«إن قصف الهند الصينية وحراثتها بالقنابل ليس إلا الترجمة الحديثة لسياسة إفناء الجواميس في الغرب الأميركي. إن لهذا البرنامج تأثيراً مدمراً على أنواع الحياة في الهند الصينية أكبر من تأثير الإبادة البيئية في الغرب الأميركي على الهنود الحمر».

شهد الغرب الأميركي شكلاً مماثلاً من هذا التدمير على يد قاتل محترف اسمه كيت كارسون Kit Carson. وكان كارسون قد بدأ حياته صياداً للفراء قبل حوالي قرن من وصول الحضارة إلى مجاهل الهند الصينية، ثم تحول إلى أسطورة شعبية من أساطير التوسع نحو الغرب، وصارت سمعته كما تقول الأسطورة «نظيفة كأسنان كلاب الصيد»، «براقة مثل سكاكينه الطويلة الحادة» التي تصنع اليوم باسمه وتخليداً بذكراه. وعلى الرغم من أميته فإنه تولى منصب مفوض الشؤون الهندية حيث استخدم سكاكينه الطويلة وكل الأسلحة المتوفرة لديه لقتل هنود النافاهو وإحراق بيوتهم ومزارعهم وحقولهم ومواشيهم ومحاصيلهم وعنابر ميرتهم في حرب اقتصادية إبادية انتهت باستسلامهم ونزوحهم المعروف بالمسيرة الطويلة من أريزونا إلى نيومكسيكو. إن سكاكين كارسون الطويلة هي السلف الصالح لقنابل الجنرال وستمورلند وصواريخ الجنرال شوارزكوف وقاذفات الجنرال فرانك. صحيح أنه لم يكن لدى قديسي بليموث ولاعات Zippo ولا دبابات

تينية قاذفة للهب، لكنهم استخدموا كل آلة الدمار المعروفة فى عصرهم لتحويل قرى البيكو إلى أفران بشرية. لقد تطورت آلة الموت والحريق. أما «انتشار الحضارة» فما يزال كاليوم الأول على صخرة بليموث «نظيفاً كأسنان كلاب الصيد».

قبل أن يصدر رمزى كلارك Ramsey Clark وزير العدل السابق كتابه عن جرائم أميركا ضد الإنسانية فى حربها على العراق، كانت الفرقة الجوية القتالية السابعة والسبعون قد أنتجت ووزعت كتاب أناشيد تصف فيه ما ستفعله الفرقة فى «الخليج»، وتنذر هذا «المتوحش القمئ».. «خدن الأفاعى» بأن يستعد للإبادة فيما ينتهى أحد هذه الأناشيد بخاتمة تقول: «الله يخلق أما نحن فنحرق الجثث Allah create but we cremate». والكتاب كما يصفه كريستوفر هيتشنس فى The Nation خليط من السادية والفحش. ومعظمه تشنيع وتشهير وشتائم بذيئة للعرب والمسلمين باعتبار أنهم أعراق منحطة و «حشرات» و «جرذان» و «أفاع». وهى بذاءات مقتبسة بالتأكيد من كتاب «حياة محمد...» لجورج بوش (الجد الأكبر ١٧٩٦ ـ ١٨٥٩) الذى يضم أشنع ما كتب عن العرب والمسلمين والنبى محمد فى الولايات المتحدة. وقد اعترف تورمن شوارزكوف فى عدة مقابلات تلفزيونية بأنه كان يريدها معركة فناء، وأشار إلى أنه كان يخطط لأن تكون على شكل معركة كاناى Cannae القرطاجية التى يطلق الطليان على موقعها اليوم اسم «حقل الدم Campo di Sangue». ومن يدرى ما ستكشف عنه وثائق هذه الحرب وما تلاها من حصار حين ترفع السرية الكاملة عنهما يوماً يتطاير فيه الريش مع رؤوس من تبقى من هذا «الجنس اللعين»!

حرب قذرة

● يوم الخميس ٢٧ مارس.. صرّح «جيف هون» وزير الدفاع البريطانى بـ «أن إحتمال سقوط ضحايا بين المدنيين العزل فى العراق سيزيد خلال الأيام القادمة » وكان تصريحه هذا أمام البرلمان البريطانى.

● وفى نفس اليوم فجر متحدث عسكرى بريطانى مفاجأة ضخمة حيث إعترف بأن سكان البصرة نظموا إنتفاضة وإضراباً عاماً ضد القوات الأمريكية والبريطانية مما دفع هذه القوات لإطلاق النار على السكان المسيطرة على الوضع.

● ومع تواتر أبناء المقاومة العراقية الباسلة، إرتكبت القوات الأمريكية مذابح جديدة فى النجف بعد ما إقترفه من جرائم يندى لها الجبين فى الناصرية حيث وردت أنباء بأن مشاة البحرية المدعومة بالدبابات قتلت حوالى ٦٥٠ عراقياً عند مدينة النجف الشيعية.

● وبتاريخ ٢٠ مارس سقط صاروخ أمريكى على سوق النصر فى حى الشعلة ببغداد مما أدى إلى إستشهاد ٦٨ عراقياً من المدنيين.

● وبنفس التاريخ قامت الدبابات البريطانية بتدمير ٧٥ ألف طن من حليب الأطفال والشاى والسكر.

وهكذا يتضح أن هذه الحرب لا يمكن أبداً أن تكون حرب تحرير أو

حرب نظيفة.

● وفى معركة مطار صدام أستشهد حوالى ٣٠٠٠٠ جندى غير الجرحى وذلك فى حرب إبادة لجيش لا يملك أى غطاء جوى.

كل ما سبق لا يُعد شيئاً بالمقارنة بالمجازر الوحشية التى ارتكبتها القوات الأمريكية فى البريطانية فى العراق.. والتى لم ينكشف عنها الحجاب حتى الآن.. وربما يوماً ستتكشف الحقيقة المدعومة بالإحصائيات.. وكل ما نعرفه الآن أنه تم إرتكاب جرائم حرب. وحرب إبادة ولم يكن أبداً الهدف منها تحرير هذا الشعب بل ذبحه وكتبه وسرقة ثرواته.

وشهدا شاهدون منهم

جرائم بوش وتابعه بلير

لا يريد الشعب البريطانى تلك الحرب التى شنت على العراق بالأمر، ولم يحدث أبداً منذ أن أصبح الرأى العام اعتباراً سياسياً مهما أن اتجهت هذه الأمة نحو الحرب، دون أن تساندها سوى قلة من الشعب.

أعلن عشرات الآلاف من المتظاهرين هذا الأمر فى أكبر تظاهرة عصيان مدنى فى شوارع عواصمنا ومدننا، وستظاهر المزيد فى لندن من أجل السلام، ولا تلقى آمال تونى بلير فى تلقى الدعم القومى للحرب، آذانا صاغية.

إن رفض جهود الحكومة لتبرير الهجوم على العراق على أنه يستند هذه المرة إلى مطالب شعبية واضحة، لا يحمل سوى معنى واحد، أننا لا نستطيع ولن نقوم بمساندة هذه الحرب والمنطق البسيط إذا كان من الضرورى أكثر أن تدان جريمة تتم بالفعل؟ ليس مطلوباً ممن يعارضون الحرب أن يقوموا بتبرير موقفهم وإنما التبرير مطلوب ممن ظلوا يرددون أنهم لن يتحركوا دون موافقة من مجلس الأمن، وغيروا من موقفهم.

سيلعب الوزراء بالطبع على وتر إعجاب العديد من الشعوب بالقوات البريطانية، لكن تبقى حقيقة أن تلك القوات لا تحارب من أجل المصالح البريطانيةولا لصالح أى من شعوب العالم لكنها تحارب من أجل إدارة أمريكية خطرة ومندفعة أصر تونى بلير على جعل بلادنا تابعة لها.

على كل حال كان رئيس الوزراء البريطانى محقاً عندما قال إن إدارة هذا العالم ستغير شكل السياسات العالمية فى العشرين عاماً القادمة. وربما يعنى أنه سيصبح هناك جيل يدير الشئون الدولية بتجاهل وازدراء تام للقانون وسلطة الأمم المتحدة إضافة إلى تبعيته التامة لقوة الولايات المتحدة الإمبريالية المتطرفة.

لا تشاركه القوى العظمى الأخرى مثل فرنسا وروسيا والصين وألمانيا هذه الرؤية وأغلب دول العالم لا تبدو على استعداد لتقبل الهيمنة الأمريكية عليها اليوم، مثلما رفضت من قبل الرضوخ لقهر الامبراطورية البريطانية منذ قرن مضى.

ما ينساه بوش أو يتناساه، أن مثل تلك الحروب فى الماضى قد أدت إلى حروب أكثر امتداداً وخطراً: لذلك حان الوقت لاعلان ذلك. وإلا أصبحنا مشتركين فى مؤامرة تكرار بعض أسوأ الجرائم فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

مسئولية بلير عن تلك الأزمة هى أمر لا يمكن مداراته بالأكذوبة التى تدعى أن الفرنسيين هم من يتحملون مسئولية ذلك الخطأ. إن رئيس الوزراء البريطانى قد فشل فى الحصول على قرار مجلس الأمن الثانى المؤيد للحرب ضد العراق. نظراً لأن غالبية أعضاء المجلس كانوا يعارضونه إضافة إلى عدم اكتراث الولايات المتحدة أصلاً بذلك القرار.

لو كانت بريطانيا قد تبنت ذات الموقف الحازم الذى اتخذته فرنسا وألمانيا منذ البداية لأمكن التوصل إلى حل سلمى للأزمة، لكنها ـ فى المقابل ـ قررت أن تريح أولئك الرجال المتوحشين الذين يتولون مقاليد الأمور فى واشنطن دون أن يعبأ بأى عزلة دولية تسببها سياساتهم.

رئيس الوزراء نفسه هو الذى صار معزولا، يعارضه معظم أولئك الذين انتخبوه كى يعبر عنهم ويرفض قراره كل خبير فى القانون الدولى، كما

ترفضه كل دولة كان يفكر فى جعلها دولة صديقة.

إن سير الأحداث نفسها فى الخليج أمر لا يمكن التنبؤ به، يراهن بلير على عجز معارضى الحرب وعدم قدرتهم على التحرك. لكنه يعلم أيضاً أنه لا يمتلك أية فرصة للخطأ فى المجالين السياسى والعسكرى.

وفى الوقت الذى يبدو فيه حزب المحافظين مؤيداً للغزو، يبدو الرأى العالم غير مستعد لأن يغفر مصرع الجنود البريطانيين ولا المدنيين العراقيين إضافة إلى أنه لم يكن مقتنعاً بحتمية الحرب فى المقام الأول.

كان من الممكن تجنب ذلك كله لكن تونى بلير اختار أن يدين بالولاء لرئيس الولايات المتحدة مضحياً بأفراد شعبه.

أندرو موارى

«الجارديان»

الله لم يفوض بوش

يستطيع بوش على عكس أغلب حلفائه أن يدعى أن شعبه يؤيده فى حربه ضد العراق، والسؤال الآن كيف جرؤ بوش ومن معه على تحدى الأمم المتحدة والسخرية من قراراتها والاستقلال برأيهم بعيداً عن بقية الأعضاء؟ لقد عبر بوش عن استهزائه بالأمم المتحدة وهاجم هو وتونى بلير فرنسا حليفهم السابقة لمجرد معارضتها غزو العراق وإفناء شعبه.

لم تكتف أمريكا بتجاهل الرأى العام العالمى، لكنها غامرت بسمعتها العالمية عندما اعتمدت على الأكاذيب لتبرر هجمتها الشرسة على العراق، كذبت عندما أعلن وزير دفاعها رامسفيلد أن العراق هى التى خططت وساهمت فى تنفيذ أحداث ١١ سبتمبر، ثم عجز عن تقديم أدلة مقنعة تثبت ما ادعاه، كذبت أيضاً عندما تجاهل بوش إخبار العالم أنه بعد حرب أمريكا السابقة ضد العراق قام والده بإعطاء حكومة صدام ١,٢ مليار دولار، وكذبت أمريكا كذلك عندما قال بوش إن العراق يمتلك أسلحة نووية ولكن مفتش الأمم المتحدة أكدوا أكثر من مرة أن العراق خال من هذه الأسلحة.

وصل استهتار أمريكا إلى أنها شوهت جهود المفتشين الدوليين واتهمتهم بالتقصير لمجرد فشلهم فى العثور على أدلة تثبت ادعاءات بوش الكاذبة، وعدم تقديمهم للإدارة الأمريكية حجة لتعلن الحرب على العراق.

إننا نعيش لحظة مرعبة من تاريخ البشرية، فالولايات المتحدة تتصرف

وكأن هناك وحيا إليها يعطى لها الحق فى إعادة رسم خريطة البشرية، وهى تفعل ذلك بإصرار دون أن تعى الدرس الذى تجاهله الغزاة القدامى وهو أن الشعوب فى حاجة إلى صنع تاريخها بنفسها. وسواء كانت الحرب الدائرة الآن طويلة أو قصيرة، فإنها فى النهاية حرب دموية.. ومن بين ما ستفعله أنها ستجعل أمريكا على يد الرئيس بوش الذى وصل إلى البيت الأبيض بصعوبة أول دولة استعمارية فى القرن الواحد والعشرين، والدليل على ذلك ما قاله بوش وبصراحة إنه يسعى إلى تغيير النظام الاقتصادى والثقافى بالعالم الإسلامى.

لقد فقدت أمريكا تعاطف العالم الذى حصلت عليه بعد أحداث ١١ سبتمبر، وتحولت إلى دولة مكروهة، ليس ذلك لأن العالم لا يستطيع أن يرى وحشية صدام حسين، ولكن لأن الشعوب التى تظاهرت ضد أمريكا.. أيقنت أن الدولة العظمى تحولت إلى كيان استعمارى مخيف!

روبرت شير

لوس أنجلوس تايمز

نحن نضرب وهم يتألمون
هذه هى الحرب

يصف وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد الهجوم الأمريكى على العراق بأنه «حملة جوية لم يسبق لها مثيل». ولا أعتقد أنه من الواجب أن يحاول ترديد ذلك القول لضحى سهيل ذات الخمسة أعوام.. كانت تلك الطفلة تنظر إلى صباح أمس، بمخاط يسيل من أنفها وكآبة عميقة ترسم خطوطها على ملامحها وهى تحاول بائسة تحريك النصف الايسر من جسدها. كان الهجوم الصاروخى الذى انفجر قرب منزلها بضاحية الرضوانية بالعراق، قد تسبب فى إصابة ساقيها الصغيرتين وعمودها الفقرى بشظايا، تسببت فى أن تفقد كل قدرة على الحركة فى ساقها اليسرى.

جوارها ترقد أمها على سرير آخر مضمدة ساقها اليمنى التى حطمتها الغارات. وبشكل ما، تؤمن أم ضحى بأن ابنتها ستتعافى من حالة الشلل تلك، حتى وإن كانت ساقاها ساكنتين جنباً إلى جنب كانت ضحى ضمن أول مائة ضحية عراقية للقصف الأمريكى على المدينة تصل إلى مستشفى المستنصرية الجامعى. وجرح سبعة آخرون من أفراد عائلتها فى الهجوم نفسه وكانت أصغر أفرادها، البالغة من العمر عاماً واحداً ترضع من أمها لحظة وقوع الهجوم.

إن تلك القذارة التى تحف زيارات المستشفى أمر يثير الاشمئزاز.. نحن نضرب وهم يعانون، ثم نعود نحن لنلتقط صوراً للأطفال المصابين.. لقد قرر

وزير الصحة العراقى عقد مؤتمر صحفى عله يكشف عن الطبيعة الوحشية للهجوم الأمريكى.

يردد الأمريكيون أنهم لا يتمنون إيذاء الأطفال.. بينما تنظر ضحى سهيل إلىّ وإلى أطبائها طلباً للطمأنينة، كأنها تظن أنها لن تلبث أن تصحو من كابوس بشع، لتجد أن ساقيها تتحركان، وأنها لا تشعر بأى ألم.

لذلك، رجاء دعونا ننسى ولو للحظة تلك الدعاية الرخيصة التى يقوم بها النظام الأمريكى وتلك المساواة الأخلاقية الرخيصة الأخرى للسيد بن بوش ورامسفيلد، فلننس ذلك ولنأخذ أنفسنا فى جولة حول مستشفى المستنصرية الجامعى. وسندرك أن الحرب فى واقع الأمر لا تدور حول النصر وهزيمة العسكريين، ولا حول تلك الأكاذيب المتعلقة بقوى التحالف التى يثرثر صحفيونا المحاصرون اليوم عن أنها تضم الأمريكيين والبريطانيين وحفنة من الاستراليين. إن الحرب، حتى وإن كانت تمتلك شرعية دولية وهو الأمر الذى لم يتم هنا، تدور فى الأساس حول المعاناة.

* خذوا عندكم مثالاً: أمل حسين ذات الخمسين عاماً: امرأة مسالمة، يملأ الوشم ذراعيها وقدميها، لكنها ترقد فى المستشفى اليوم وكدمات زرقاء كبيرة تملأ كتفيها ـ ربما تضاعف حجم تلك الكدمات الآن.. كانت أمل فى زيارة لابنتها عندما وقع القصف الأمريكى الأول على بغداد، وتروى أمل تجربتها قائلة: «لم أكد أنزل من سيارة الأجرة حتى وقع انفجار هائل، ورأيت دمى متناثراً فى كل مكان على ذراعى وساقى وصدرى» وبالفعل مازالت أمل تعانى من عدة جروح قطعية فى صدرها.

فى الغرفة الثالثة ترقد إسراء رياض، وإصاباتها معروفة مصادرها بدقة، تلك الجروح الطولية العميقة فى ساقيها جاءت من فرارها المذعور من منزلها عندما بدأ القصف. أما إيمان على فهمى فى الثالثة والعشرين من العمر وتعانى من جروح قطعية فى الجذع والحوض.. مازالت نجلاء حسين عباس تحاول أن تغطى الكدمات الزرقاء التى تغطى رأسها بإيشارب أسود،

لكنها لا تستطيع فعل شئ حيال الكدمات التى تغطى سائر جسدها : بعد قليل من رؤية ذلك كله، تبدو لك كلمة «جروح قطمية مضاعفة» أمراً متكرراً روتينياً، كأنه مرض عادى، وربما كان الأمر كذلك بالنسبة لشعب يعانى من الحرب منذ أكثر من ٢٠ عاماً.

لذلك كله طرحت تساؤلاً على نفسى بالأمس، هل كان ذلك كله بسبب أحداث ١١ سبتمبر؟ هل كان ذلك كله هجوماً مضاداً على من هاجمونا؟ أراهن على أن ضحى سهيل وإيمان على ووحيد حسنى لم يكن لهم شأن بتلك الجرائم البشعة ضد الإنسانية، من الذى قرر أن على هؤلاء الأطفال الأبرياء وهؤلاء النساء الشابات، أن يعانوا من أحداث ١١ سبتمبر؟.. إن الحروب تكرر نفسها، وفى كل مرة نزور فيها أحداً ممن أصبناهم يتردد فى أذهاننا ذات السؤال.

أذكر أن الصحفيين الأمريكيين فى ليبيا عام ١٩٨٦ كانوا يكررون سؤالاً واحداً على المصابين: «هل تسببت نيران مدفعيتكم المضادة للطائرات فى إصابتكم؟.. ومرة أخرى عام ١٩٩١ «سألنا» العراقيين ذات السؤال. وبالأمس وجد طبيب عراقى نفسه فى مواجهة سؤال أحد مراسلى الإذاعة البريطانية: «هل تعتقد يا دكتور، أن بعض هؤلاء المصابين يمكن أن يكونوا قد أصيبوا بالنيران العراقية»؟

هل لنا أن نضحك أم أن نبكى على ذلك، هل ينبغى علينا أن نلومهم «هم» على إصابتهم؟ ما

لقد غزا «زينوفون» العراق من الجنوب، بينما غزاها الإسكندر من الشمال، واكتسح المغول بغداد، ثم جاء الخلفاء ومن بعدهم العثمانيون ثم البريطانيون. ثم ذهبوا جميعاً.. والآن يأتى الأمريكيون

ينبغى علينا هو أن نسأل: لماذا تهون تلك القوات الأمريكية مما فعلته:

٣٢٠ ضحية فى بغداد وحدها.. جاءت إسراء رياض من منطقة الصيادية، حيث تتواجد الكثير من الحواجز العسكرية، أما مسقط رأس نجلاء عباس فهى منطقة Risallah، حيث توجد قرى تمتلكها أسرة صدام حسين، الإخوان «سليم» الصغير أن يعيشان فى شيرتا الخامسة حيث يوجد مخزن للمدرعات العسكرية، وربما كانت تلك هى المشكلة: أن الأهداف العسكرية موزعة على طول المدن، والفقراء - يعيشون فى منازل خشبية رخيصة، تتهشم بسهولة تحت وطأة القصف.

إنها نفس القصة القديمة: فى كل مرة نشن فيها حرباً فإننا نقتل فى غمارها مدنيين كثيراً، مهما كانت ثرثرتنا حول اهتمامنا وحرصنا على المدنيين.

د. حبيب الهزاعى، الذى تلقى تعليمه فى جامعة ادنبرج، أحصى ١٠١ مريض من أصل ٢٠٧ مصابين من جراء القصف فى مستشفاه فقط، ٨٥ منهم كانوا مدنيين، ٢٠ منهم كن نساء، ومنهم ٦ أطفال، وفقط ١٦ عسكرياً. مات شاب وطفل لا يزيد عمره على ١٢ سنة أثناء إجراء عملية جراحية لانقاذهما ولن يعلن أحد عدد العسكريين الذين قتلوا فى هذا الهجوم.

كانت القيادة فى شوارع بغداد أمس تجربة متفردة، كانت الأهداف منتقاة بعناية، وحتى إن نتج عن إصابتها إيذاء مدنيين. لم أر سوى قصر رئاسى واحد تملأ أركانه تماثيل للقائد العربى «صلاح الدين» يبلغ طولها ٤٠ قدماً، لكن بدلاً من وجه القائد العربى كانت التماثيل تحمل وجه صدام ووسط الحديقة توجد حفرة سوداء عميقة، ناجمة عن تدمير المبنى، الذى كان يضم وزارة الدفاع الجوى، المقابل للقصر.

لكن فى الخارج قرب البوابة كانت هناك عدة أكياس رمل متراصة، ووراءها يقف عسكريان عراقيان حسنا المظهر، على أهبة الاستعداد للدفاع عن وزارتهما من العدو، والذى دمرها بالفعل.

في الصباح، لم يجرؤ سائق واحد على النظر مطولاً إلى القصر الجمهوري، ولا إلى مبنى وزارة الدفاع الذي يتصاعد منه الدخان، كانت النيران مازالت تتصاعد منهما بعد أكثر من ١٢ ساعة من القصف، وبدا الأمر وكأن القصور المحترقة والوزارات المهدمة وسحب الدخان المتصاعد، من مفردات الحياة العراقية اليومية، لكن من جانب آخر، لا يبدو أن أحداً في العراق يجرؤ على النظر مطولاً إلى تلك المباني تحت ظل النظام الحاكم، أليس كذلك؟ والعراقيون قد فهموا جيداً ما يعنيه ذلك كله.

عام ١٩٩١ هاجم الأمريكيون معامل تكرير البترول ومحطات الكهرباء والمياه، وخطوط الاتصالات، لكن بالأمس كانت الحياة مستمرة في بغداد، الهواتف الأرضية تعمل، والانترنت كذلك، وكانت الطاقة الكهربائية تعمل على أكمل وجه، وبقيت الجسور فوق نهر دجلة دون أن تمس أو تدمر. لأن بالطبع «لو» كان الأمريكيون قد وصلوا هنا، فلابد أنهم سيكونون بحاجة إلى شبكة اتصالات قوية، وكهرباء ووسائل مواصلات إن ما جرى ليس تدليلاً للشعب العراقي قدر ما هو تمهيد لمن يفترض بهم أن يصبحوا سادة العراق الجدد.

لقد صدرت الصحيفة العراقية اليومية الأولى أمس في أربع صفحات فقط، بكم كبير من المقالات التي تشيد بـ «صمود» الشعب العراقي، و«صمود» هي ذات الكلمة التي سميت بها الصواريخ التي دمرها العراق جزئياً قبل أن يرغم بوش مفتشي الأمم المتحدة على مغادرة العراق. وكان مانشيت الصحيفة يقول: «أيها الرئيس سيأتي النصر على أيد عراقية».

ومرة أخرى نرى أنه لم تكن هناك أية محاولة من قبل الولايات المتحدة لتدمير مبنى التليفزيون لأن الأمريكيين يريدون، على الأرجح استخدامه لدى وصولهم.

وأثناء القصف الأمريكي يوم الجمعة الماضي، ظهر على الشاشة قائد عسكري عراقي يطمئن الأمة ويبشرها بالنصر، وأثناء حديثه، ظهرت قاذفات الصواريخ الأمريكية وهي تقصف مبنى وراءه وتشوش إرسال الكاميرا.

إذن.. إلى أين يقودنا ذلك كله؟ لقد بقيت فى الساعات الأولى من صباح أمس، أتأمل القصر الجمهورى بدماره الكئيب عبر نهر دجلة، وإلى مبنى وزارة الدفاع المهدم بجواره، كانت هناك أنقاض دمار واسع، والسماء تشتعل بالنيران والدخان، كان الأمر أشبه بأسطورة.
Tsesiphan تدمر، Mesopotamq لحظة تدميرها كما شوهدت منذ آلاف الأعوام.

لقد غزا «زينوفون» العراق من الجنوب، بينما غزاها الإسكندر من الشمال، واكتسح المغول بغداد، ثم جاء الخلفاء ومن بعدهم العثمانيون ثم البريطانيون. ثم ذهبوا جميعاً.. والآن يأتى الأمريكيون.

إن الأمر ليس له علاقة بالشرعية، ولكن بأمر أكثر جاذبية وبريقاً.. أمر يدرك صدام نفسه أهميته جيداً.. إنه نوع خاص من القوة.. ذات القوة التى كان كل غاز للعراق يأمل فى أن يثبت نجاحه فى قهره بأسلوبه الخاص، فى أرض الحضارات القديمة.

أمس، أشعل العراقيون النيران فى خنادق النفط الهائلة حول بغداد أملاً فى تضليل نظام التوجيه فى صواريخ كروز.. الدخان فى مواجهة العقول الإلكترونية.. وبدأت الغارات الجوية تدوى فى الساعة ٣,٢٠ بتوقيت لندن. لتأتى بعدها أصوات الانفجارات المعهودة.

روبرت فيسك

مراسل الإندبندنت فى بغداد

سيدى الرئيس بوش: شكراً على هذه المهزلة!

سيدى القائد العظيم جورج بوش شكراً..

نشكرك لأنك أظهرت للجميع ذلك الخطر الذى يمثله صدام حسين بعدما كاد كثيرون منا ينسون استخدامه للأسلحة الكيماوية ضد شعبه وضد الأكراد والإيرانيين.. إن صدام ديكتاتور متعطش للدماء أحد أبرز صور الشر فى عالم اليوم.

لكن.. ليس ذلك هو السبب الوحيد لشكرك ففى خلال أول شهرين من عام ٢٠٠٣ نجحت فى أن تظهر للعالم عدة أمور مهمة تستحق من أجلها إمتنانى وشكرى.

لذلك وبينما ترد إلى ذهنى أغنية تعلمتها وأنا طفل أود أن أقول.. شكراً لك.

شكراً لأنك أثبت للجميع أن البرلمان التركى ليس قابلاً للبيع لا هو ولا الشعب الذى يمثله ولو بمقابل ٢٦ مليار دولار.

شكراً لأنك أظهرت للعالم تلك الفجوة الموجودة بين قرارات المسئولين عن الحكم وبين رغبات وآمال الشعوب.. شكراً لأنك أظهرت للعالم أن تونى بلير وخوسيه ماريا أزنار لا يقيمان أى وزن أو احترام لأراء من انتخبوهما إن أزنار بالذات يمتلك قدرة هائلة على تجاهل حقيقة أن ٩٠٪ من الأسبانيين يعارضون الحرب، بينما لم يهتز بلير أمام المظاهرات التى إجتاحت انجلترا

والعالم أجمع فى الثلاثين يوماً الماضية.

شكراً لأنك جعلت تونى بلير مضطراً للذهاب إلى البرلمان البريطانى مسلحاً بملف من «فبركة» طالب عمره عشرة أعوام وقدمه على أنه أدلة دامغة جمعها المكتب الخامس البريطانى.

شكراً لأنك سمحت لكولين باول بأن يجعل من نفسه أضحوكة عندما عرض على مجلس الأمن صوراً أنكر هانز بليكس صحتها قبل عشرة أيام من عرضها.

شكراً لأنك بعد كل الجهود التى بذلتها للترويج للحرب أعلنت الدول العربية المنقسمة عادة وللمرة الأولى فى اجتماعها بالقاهرة فى فبراير أعلنت عن اتحادهما لرفض وإدانة كل صور الغزو،

شكراً لموقفك «الخطابى» الذى أعلن أن هذه هى فرصة الأمم المتحدة كى تثبت مصداقيتها. موقف جعل أكثر الدول خنوعاً تتبنى اتجاهاً معارضاً لأى هجوم على العراق.

شكراً لسياستك الخارجية التى دفعت وزير الخارجية البريطانى جاك سترو إلى القول بأنه فى القرن الحادى والعشرين لابد أن يكون للحرب مبرر أخلاقى وهو ما أفقده مصداقيته تماماً.

شكراً لمحاولتك تقسيم أوروبا التى تتجه الآن نحو الوحدة، كان ذلك إنذار بأن تلك الوحدة لن تتم بسهولة.

شكراً لأنك انجزت أمراً عجز كثيرون عن إتمامه طوال ذلك القرن وهو جمع ملايين الأشخاص من كل البلاد والأعراق ليحاربوا فى سبيل فكرة واحدة حتى وإن كانت متعارضة مع فكرتك ونظرتك أنت.

شكراً لأنك جعلتنا جميعاً نشعر بأن كلماتنا لن تسمع وعلى الرغم من ذلك سنكون أقوى بقولها فى المستقبل.

شكراً لتجاهلك لنا وتهميشك كل من يعارضون قرارك لأن الأرض يرثها المستبعدون.

شكراً لأننا لولاك لما تبلورت قدرتنا على التحرك ربما لم نستفد كثيراً اليوم: لكن الأمر حتماً سيفيدنا غداً.

والآن بعدما انتهت كل الأساليب التى يمكن وقف طبول الحرب بها أود أن أقول الجملة ذاتها التى قالها ملك أوروبى قديم لأحد الغزاة هى: «ادع أن تنعم بصباح جميل وأن تشرق الشمس على جيشك المسلح لأننى عند الظهيرة سأهزمك».

شكراً لأنك سمحت لنا نحن جيش الرجال المجهولين الذين يملأون الشوارع فى محاولة لإيقاف أمر بدأ بالفعل بأن نعرف معنى الشعور بالعجز وأن نتعلم كيفية تحويل ذلك الشعور إلى أشياء أخرى والتعامل معها بشكل فعال.

لذلك استمتع بيومك وبكل نصر يأتى لك فيه.

شكراً لعدم استماعك إلينا والسخرية منا.. لكن فلتعلم أننا نحن نستمع إليك.. ولن ننسى كلماتك.

شكراً جزيلاً لك.

باولو كـــويلهـــو

روائى برازيلى شهير

أيام العار فى بريطانيا

اليوم هو أحد أيام العار للجيش البريطانى، فقد أعلن الجيش عن أن مدينة البصرة العراقية التى يصل تعداد سكانها إلى ٦٠٠ ألف نسمة تعد «هدفاً عسكرياً» لن تقرأ هذه الكلمات فى وسائل الإعلام التى تدعى أنها تعبر عن بريطانيا وتتحدث باسمها، ولكنها كلمات صادقة، فمع هذا الإعلام سيكون العار لنا بتصديق من بوش وبلير.

بعد أن قام البريطانيون والأمريكيون بتدمير إمدادات المياه والكهرباء بالمدينة وقطعوا عنها طرق الإمدادات الغذائية وفشلوا فى اختراق دفاعاتها البشرية يستعدون الآن لحصار ثانى أكبر المدن العراقية وهى المدينة التى يمثل الأطفال ٤٠٪ من سكانها يا لها من لحظة كئيبة فى تاريخ بريطانيا. فنحن نرى الآن دولة فقيرة تتعرض لهجوم من قوة عظمى وهى الولايات المتحدة التى تمتلك ثروة لا يمكن تخيلها وأسلحة تعد الأكثر تدميراً فى العالم تساعدها فى ذلك بريطانيا الحليفة التى تفتخر بأن جيشها هو أفضل جيش محترف فى العالم وبعد أن صدق القادة العسكريون ادعاءاتهم أصابهم الذهول من صمود المقاومة العراقية.

فقد حاولوا التقليل من شأن الميليشيات التى تدافع عن البصرة بقصص كاذبة بأن مقاتلى هذه الميليشيات يقاتلون بعضهم البعض.

والحقيقة أنهم يحاربون كالأسود للدفاع عن وطنهم وليس عن الطاغية وهى حقيقة ستكون محل إعجاب الغالبية العظمى من البريطانيين المهذبين والمقارنة التاريخية التى يخشى تونى بلير ومروجو ادعاءاته منها هى البريطانيون الذين دافعوا عن أنفسهم ضد الاحتلال منذ ٦٠ عاماً الآن صرنا من يقوم باحتلال أراضى الغير.

وأمس، قال بلير: إن ٤٠٠ ألف طفل عراقى ماتوا خلال الأعوام الخمسة الماضية نتيجة سوء التغذية وقال إن كميات هائلة من المساعدات الإنسانية والمياه النظيفة تنتظر فى الكويت إن سمح النظام العراقى بوجود ممر آمن لهذه المساعدات.

وفى الواقع هناك أدلة قاطعة عديدة بما فى ذلك ما نشره صندوق الأمم المتحدة للطفولة يوضح أن السبب الرئيسى لموت هؤلاء الأطفال يرجع للحصار المؤلم الذى استمر العراق يعانى منه لمدة ١٢ عاماً بسبب أمريكا وبريطانيا.

وحتى يوليو الماضى، منعت واشنطن وصول إمدادات إنسانية تقدر قيمتها بنحو ٥ مليارات دولار رغم موافقة الأمم المتحدة عليها ودفع الحكومة العراقية لقيمتها، ووصف مساعد الأمين العام للأمم المتحدة السابق دينيس هاليداى والذى أرسل للعراق لإعداد برنامج «النفط مقابل الغذاء» وصف هذه الإجراءات بأنها «ليست سوى مذبحة»، وهى كلمات مشابهة لما استخدمها خليفته «هانزفون سبونيك».

وقد استقال هذان الرجلان احتجاجاً على ذلك وقالا إن الحصار دعم قوة صدام حسين ووصف كلاهما بلير بالكاذب.

والآن يطلق جنود بلير صواريخهم لإضعاف مقاومة البصرة، سرت فى شوارع المدينة فى طريق تمزق إلى قطع بسبب الصواريخ الأمريكية. وكانت الضحايا من الأطفال بالطبع لأن الأطفال دائماً ما يكونون على وجهى عند

وقوفى فى ملعب بأحد المدارس مع مدرس ومئات من الصغار الذين عانوا من سوء التغذية.

هبت الأتربة علينا من ساحات القتال الجنوبية لحرب عام ١٩٩١ والتى لم يتم تنظيفها لأن الأمريكيين والبريطانيين حرموا العراق من المعدات المتخصصة اللازمة للقيام بذلك.

وقال لى الدكتور جواد على إن الغبار يحمل معى بذور موتنا. وفى أقسام الأطفال بمستشفى البصرة الرئيسى، تعد حالات الوفيات العديدة نتيجة لأنواع غير معروفة من السرطان أمراً مألوفاً ويشك المتخصصون فى أن نصف سكان جنوب العراق سيموتون نتيجة السرطان المرتبط باستخدام أسلحة الدمار الشامل الأمريكية والبريطانية المتمثلة فى القذائف والصواريخ المصنوعة من اليورانيوم المنضب.

ومرة أخرى، قام الأمريكيون بنشر ما أسماه الأستاذ دوج روك الطبيب السابق بالجيش الأمريكى «أحد أشكال الأسلحة النووية التى تلوث الجميع وكل شئ».

واليوم، تحتوى كل طلقة تخرج من الدبابات الأمريكية على ٤,٥٠٠ جرام من اليورانيوم الصلب وتتسبب جزيئاتها التى يمكن استنشاقها أو بلعها مع الطعام فى الإصابة بالسرطان.

وقد تم التعميم على استخدام هذه الطلقات المدفعية، وكذلك على استخدام نوع جديد من القنابل العنقودية.

ومرة أخرى حرم البريطانيون من معرفة حقائق الحرب.

وتظهر صور الأطفال الجرحى فى المستشفيات على شاشات التليفزيون ولكنكم لا ترون نتائج إسقاط القنابل العنقودية التى تطلقها طائرات التورنيدو ولا ترون أيضاً الأطفال الذين مزقتهم الصواريخ والذين تحولت أقدامهم إلى قطع من الدماء.

فهذه الصور تعد غير مقبولة لأنها تسبب مضايقات للمشاهدين والسلطات لا ترغب في ذلك، والصور التي لا ترونها هي الحقيقة.. فالآباء العراقيون يضطرون لرؤية أبنائهم المشوهين إذن لماذا لا نرى تلك الصور رغم أن هذه الحرب شنت باسمنا؟

لماذا لا نشاركهم آلامهم؟ ولما لا نرى الطبيعة الحقيقية لهذا الغزو الإجرامي؟ إن كان لديكم جهازاً لالتقاط القنوات الفضائية حاولوا العثور على قناة الجزيرة والتي ميزت نفسها بتغطيتها، فعندما قصف الأمريكيون أفغانستان دمرت إحدى قنابلهم الذكية مكتب الجزيرة في كابول. أعتقد قليل من الناس أن الأمر مجرد حادث عابر، ولكن القصف كان بالفعل شهادة على الاستقلالية الصحفية للقناة.

تذكروا أن من يعارضون الحرب لا يحتاجون إلى تبرير موقفهم، بصرف النظر عن دعوات بلير «لدعم قواتنا» وهناك طريقة واحدة لدعم تلك القوات وهي إعادتهم إلى وطنهم دون تأخير.

ففي عام ١٩٣٢، تخلص العراقيون من بقايا حكام الاستعمار وفي عام ١٩٥٨ تخلصوا من العرش الهاشمي.

وبين العراقيون أن بإمكانهم الإطاحة بأي ديكتاتور يحكمهم. إذن لماذا لم يكن بمقدورهم الإطاحة بصدام؟!

السبب هو أن البريطانيين والأمريكيين قاموا بتسليحه وحمايته لأن ذلك كان يناسبهم. وعندما ملوا منه، رأوا أنهم سيكونون البديل الوحيد لحكمه والمستفيدين الوحيدين من موارد العراق. وقد عملت الإمبريالية دائماً على نفس هذه الصورة.

فالعراق الجديد كما يسميه بلير سيكون له عدة نماذج مثل هايتي وجمهورية الدومينيكان ونيكاراجوا. وهي كلها مناطق فتحها الأمريكان وحكومتها حتى سمحت واشنطون لديكتاتوريات خبيثة بتولي الحكم فيها.

وقد جاء صدام إلى الحكم بعد أن ساعده الأمريكيون على إقامة حزب البعث عام ١٩٧٩. وكما يقول ضابط المخابرات المركزية الأمريكية المسئول عن ذلك «كان ذلك انقلاب الحكم المفضل لى».

ولنضع فى اعتبارنا المرارة التى تكمن خلف تلك الحقائق عندما تسمع بعد ذلك عن صدق بلير وعندما ترى - إن أمكنك - الصور غير المقبولة للأطفال الذين لقوا حتفهم باسمك وبهدف ما يطلق عليه رئيس الوزراء «وطنيتنا البسيطة» حقاً إنه نوع من الوطنية وصفه تولستوى «بأنه لا يعدو كونه وسيلة فى أيدى الحكام لتحقيق أطماعهم وتحقيق رغباتهم الخبيثة أما بالنسبة للمحكومين فإنها وسيلة تهدر بها كرامتهم وتنتهك عقولهم وضمائرهم».

جون بيلجر

كاتب بريطانى

بوش «مجرم حرب» عليه ألا يذهب إلى بلجيكا

لقد كان قراراً صائباً من كندا عندما رفضت الدخول فى الحرب مع الولايات المتحدة فهذه الحرب غير شرعية.

وقد كان رئيس الوزراء الكندى على حق عندما دعا البرلمان إلى عدم تأييد هذه الحرب وعدم المشاركة فيها.

ولكن ولأدب رئيس الوزراء الكندى جون كريتن لم يذكر أن الحرب بدون موافقة مجلس الأمن تجعل الولايات المتحدة ومن معها خارج نطاق الشرعية الدولية فقد تحولوا إلى بلاد تعتدى على القانون الدولى.

لقد قال خبير القانون الدولى «تيد ماوينى» إنه لا يوجد قاعدة قانونية لهذه الحرب وهذا أمر واضح منذ البداية.

وعلى الدول التى تحرص على القانون الدولى وتحاول فرضه على الآخرين أن تحرص هى نفسها على عدم خرقه والحفاظ عليه وهذا ما تفعله فرنسا بعكس أمريكا.

ولكن الآن ماذا يحدث؟! العراق الذى ظل طوال ١٢ عاماً يعتدى على القانون الدولى ويتحدى الشرعية الدولية أصبح الآن وفى نظر العالم فى صورة الضحية البريئة حتى صدام حسين الديكتاتور أصبح ينظر له نظرة

تعاطف أكثر اثنين مسئولين عن هذا التحول فى رأى العالم هما صدام وبوش.

استراتيجية صدام كانت فى منتهى البساطة وهى الالتزام بقرارات الأمم المتحدة وعلى النقيض كان بوش مغروراً وعنجهياً..

كلما التزم صدام بقرارات الأمم المتحدة زاد بوش فى عناده وغروره.

والنهاية أصبح العالم - حتى هؤلاء الذين لا يهتموا كثيراً بما يحدث على النطاق العالمى - لا يستطيع أن يحدد من منهما الشرير.

وفى حقيقة الأمر فإن سلوك بوش من يصعب فهمه أو تفسيره فقد ظل لمدة عام يبدى رغبته الشديدة فى غزو العراق.

ولعل هذا التركيز الشديد على غزو العراق جعله غير قادر على دعم دبلوماسى من حلفائه المعتادين بمجلس الأمن والذين يحتاجون إلى الدعم المادى الأمريكى ولكن انتهى الأمر ببوش بأنه أصبح غير قادر على ضمان دعم دولة كالمكسيك.

والكلام الذى يردده بوش عن مبرراته لشن الحرب هراء ومثلما قال ماوينى فإن قرارات الأمم المتحدة وقت تطبيقها محدد وكذلك مكان تطبيقها ولا يمكن استغلال قرارات صدرت منذ فترة لتبرير أفعال حالية فلا يوجد دولة يمكن أن تكون فى وقت واحد خصما وحكما وجلادا.

فقرار الأمم المتحدة رقم ٦٧٨ صدر لإنهاء الغزو العراقى للأراضى الكويتية أما قرار ٦٨٧ فهو متعلق بوقف إطلاق النار فى نهاية حرب الخليج الأولى ولهذا فهو لا يتضمن أى شئ متعلق بإباحة استخدام القوة.

هذه أمور كلها ذكرت فى ميثاق الأمم المتحدة وهو الميثاق الذى وضعته الولايات المتحدة وحلفاؤها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهو الميثاق الذى ينص على أنه ليس من حق أى دولة شن الحرب على دولة أخرى إلا فى حالة

الدفاع عن النفس أو بموافقة من الأمم المتحدة وأى دولة لا تلتزم بهذه الأمور تعتبر خارجة على القانون الدولى.

ولكن هذا لا يعنى أن بوش وبلير سيحاكمون حتى بعد خروجهما من الحكم ورغم أن بوش كان ذكيا عندما رفض الاعتراف بمحكمة مجرمى الحرب الدولية الجديدة والتى يتم بناؤها فى هولندا .. فإن ماوينى يقول إن بوش وبلير وحلفاءها عليهم أن يبقوا بعيداً عن بلجيكا فهذه الدولة الصغيرة تعامل مجرمى الحرب بقسوة وتخضعهم لقانونها الخاص.

وبشكل نظرى فإن بوش قد يجد نفسه فى النهاية فى زنزانة يشاركه فيها مجرمو حرب آخرون مثل صدام حسين مثلاً.

توماس والكوم

حرب «الغباء المتوارث»

تبدو المسافة بين حديقة ماديسون سكوير، والعاصمة بغداد. بعيدة إلا أنها فجأة لم تعد بذلك البعد.

إن التاريخ الذى أذكره بدقة هو ٢٤ مارس ١٩٦٢ كان «راميل جريفيث» و «بيتى باريت» قد كافحاً للحصول على بطولة العالم فى الملاكمة مرتين وكان باريت لاجئاً كوبياً مثقفاً لم يتفق مع جريفيث لقد كانت بينهما مباراة تاريخية كاد خلالها باريت يخرج جريفيث من المباراة منذ الجولة السادسة؛ لكن.. كانت هناك عدة ضربات قوية بعدها أضعفت باريت وأنهكته، فبدأ «ينحل» مثلما كان دونالد رامسفيلد يقول!

فى الجولة الـ ١٢ علق باريت فى حبال الحلبة؛ وقد بلغ منه الانهاك حداً منعه من الهرب.. ولم يفعل الحكم «روبى جولدشتاين» شيئاً وإنما تراجع تاركاً العنف يأخذ بزمام الأمور وليكن ما يكون.

ظل جريفيث ينهال على باريت ضرباً حتى انتابت الأخير رجفة عنيفة وسقط بعدها فى غيبوبة عميقة، استمرت عشرة أيام قبل أن تفيض روحه إلى بارئها.

رياضة الموت، هى الرياضة التى يبثها التليفزيون على جمهوره.. ينقلك من مباراة قاتلة إلى أخرى، يجعلك تشاهد حالة من «انحلال» القوة والعالم يجلس متفرجاً ولذلك، وعلى مدى أربعة عقود، ظلت صورة جثة باريت

المحكمة ماثلة أمام أعيننا نراها على أنها صورة لضحية غبية نرمقها بأسف وشفقة، لكن ليس بصدمة وهلع.

هل ضرب بغداد حقاً هو بتلك الصورة الهائلة التى يفترضها دونالد رامسفيلد ورئيسه التقليدى المبتسم على الدوام؟ أهى مجرد عرض مبهر للعجائب التكنولوجية والتخطيط الدقيق الذى يترك وراءه ضحايا كثر ليس المستهدفون من بينهم إلا قليلاً؟ أهى مجرد استعراض للقوة الأمريكية التى تعيد إلى الأشرار صوابهم؟ ذلك هو جوهر الأمر.. الكل يأمل فى حل سريع هناك، ألق بالشاب الذى تكرهه على الحبال وواصل ضربه، لكن، مثل الجولة الـ ١٢ المروعة بين جريفيث وباريت لم يكن هناك أى إبهار ولا أى هلع بل فقط شعور من خيانة وإهانة الإنسانية.

هل كان من شاهدناه منذ عامين يحاضر فى هوليوود عن مساوئ العنف، هو ذات ديك تشينى الذى نراه اليوم؟ أين أسلحة الدمار الشامل المذهلة والمزعومة؟ لماذا لم تستخدم فى أشد الأوقات يأساً على القوات العراقية، أسلحة ستحمل الفشل إلى سماء الطائرات الأمريكية.

لقد أظهر الأمر مدى هشاشة التهديد المحتمل

هزم جورج بوش الأب صدام حسين وفقد منصبه، لكن جورج بوش الابن ينوى الإطاحة بصدام والاحتفاظ بمنصبه حتى عام ٢٠٠٤

لأمريكا وكيف من الممكن كذلك أن يتحول ضعف أجنحة الجيوش فى العالم الثالث إلى شراسة. وهى فى رأيى صعوبة بالغة تثير الفزع.

من المفترض هنا أن ندعم أبناءنا فى أوقات كهذه، ليس من المفترض أن نحتج أو أن ترتفع أصواتنا بالصراخ. هذه حرب تمتد من أيوجيما إلى الكويت لكن مثل هذه الحروب حتى تلك التى وقعت منذ ١٢ سنة خلت؛ كانت تحمل فى داخلها عنصراً إنسانياً. كان من يحاربون فيها رجالاً ونساء وليسوا أشخاصاً

آلين.. هل هذا هو الأمر اليوم بتلك الآليات التى تظهر على شاشة التليفزيون؟

ليس مطلوباً منك أن تحب صدام أو أيا من أفعاله ولو لثانية، لكن الحرس الجمهورى، وحتى أعضاء الحرس الجمهورى الخاص هم من أبناء الجنس البشرى أيضاً، لهم آباء وزوجات وأبناء.. إنهم يحترقون وينزفون ويموتون.

ينطلق القصف على بغداد ومعه تنطلق المظاهرات والاحتجاجات فى العالم كله. فى لندن ونيويورك وسان فرانسسكو ومناطق أخرى الأمر الذى يثير دهشة الحكومة البريطانية من المفترض أن تتحد فى مواجهة وقت كهذا، لكن يبدو من الواضح، مع تلك الأضواء البرتقالية والزرقاء التى تضئ سماء العراق، أن الجنرال تومى فرانكس على حق، وأن هذه حرب «كباقى الحروب فى التاريخ» فقط يتم تحريك هذه الحرب بأجهزة التحكم عن بعد وأبناؤنا ليسوا سوى مجرد علب مياه غازية، فى ماكينة تدار ببلايين البلايين من الدولارات.

هنا المفارقة.. إن حرب الخليج الأولى لم تساعد جورج بوش الأب، وإنما دمر ذلك الغبى الاقتصاد وكذلك اليوم على العكس مما ترغب فيه الإدارة الأمريكية بدأت متاعب الاقتصاد تخنق جورج بوش الابن، ويظهر ثانى أكبر استطلاع للرأى على أنه بعيد كل البعد عن الديمقراطية.. لقد هزم جورج بوش الأب صدام حسين وفقد منصبه، لكن جورج بوش الابن ينتوى الإطاحة بصدام والاحتفاظ بمنصبه حتى عام ٢٠٠٤.

«حرب ليست كباقى الحروب»؟ فكر فقط كيف تلعب هذه الحرب دوراً عن بعد فى المنازل والقلوب.. هل نشعر بالفخر لذلك.. أم أن ما لدينا هو فقط شعور مزعج بأن تلك ليست حرباً حقيقية ذات الشعور الذى انتابانا عندما ضُرب «باريت» ليشعرنا بأن تلك ليست رياضة بحق؟!

بيتر برستون

«الجارديان» البريطانية

بوش.. تلميذ هتلر النجيب!

فى هذه اللحظات القاسية، يستحيل علينا القيام بأى شىء أملا فى إيقاف هذا الغزو الكاسح، وهذا لا يعنى انتهاء مهمة من يهتمون بالعدالة والحرية وحقوق الإنسان، بل على العكس تماما ستزداد واجباتهم إلحاحا مهما كانت نتيجة الحرب والتى لا يعرف أحد نتيجتها لا البنتاجون ولا المخابرات المركزية الأمريكية ولا أى شخص آخر وإن كانت كل الاحتمالات مطروحة فى مثل هذه الكوارث الإنسانية المروعة والتى حذرت منها وكالات الإعانة والإغاثة فى العراق.

لن يقلل شىء من جرم الأمريكان الذين جعلوا شعبا عاجزا يعانى من مخاطر رهيبة لا لشىء سوى تحقيق أهداف سياسية مخجلة ولن يقلل شىء من جرم الأمريكان حتى وإن لم تمس شعرة من رأس مخلوق.

سيمر وقت طويل قبل أن يصبح من الممكن بناء حكم أولى ومن المهم فى نفس الوقت أن نهتم قدر المستطاع بالعواقب المحتملة وهذا يعنى بالضرورة الاهتمام أولا بما بحاجات الشعوب فى ظل العقوبات الاقتصادية التى تفرضها الولايات المتحدة على العراق منذ عشر سنوات بشكل دمر المجتمع المدنى وزاد من قوة الطغاة الحاكمين مما جعل الشعوب تعتمد عليهم رغبة فى مواصلة الحياة.

ما فعلته أمريكا قلل من احتمالية أن يلقى صدام حسين نفس مصير الطغاة السابقين له والذين لا يقلون عنفا عنه وربما يتداعى إلى الذهن فى هذه الحالة أولئك المجرمون الذين دعمهم رؤساء الحكم فى واشنطن حتى أيامهم الأخيرة مثل «سيسكو».

ربما يكون من اللائق أن تقوم أمريكا مبدئيا بتقديم تعويضات هائلة للعراق بشكل متدفق ربما يساعد العراقيين على إعادة بناء ما تم تدميره بالشكل لا الشكل يرونه صحيحا وليس وفقا لأهواء سادة واشنطن وكروفورد الذين يؤمنون بأن «القوة منبعها براميل البارود»!

ولو تطرقنا إلى القضايا الحيوية لوجدناها أكثر تشعبا وأطول أمدا،إن الاعتراض على غزو العراق هو أمر لم يحدث تاريخيا من قبل ولذلك كان من الضرورى على بوش أن يلتقى ذات مرة باثنين من معاونيه فى قاعدة عسكرية على جزيرة بعيدة عن الناس. وربما كان الاعتراض الاساسى يدور حول غزو العراق إلا أن أبعاده تمتد لتشمل أكثر من ذلك.

أمريكا قوة يتزايد الخوف منها نظرا لأنها تعد التهديد الأكبر للسلام فى معظم أنحاء العالم، يضاف إليها تكنولوجيا الدمار التى تمتلكها والتى تتزايد فى كل يوم فتكا وضراوة عن اليوم الذى سبقه، ليجد العالم نفسه فى مواجهة تهديد للسلام يمكن أن يهدد البقاء الإنسانى بالكامل.

إن المشكلة ليست فقط فى اجتياح الحكومة الأمريكية للعراق وإنما فى الخلفيات والتبعات المثارة حول هذا الموضوع: أمريكا تصر على أن تحكم العالم بالقوة، وربما لمزيد من التأكيد على تفوقها وسيطرتها، فسيتم اللجوء إلى الحروب التى تستبق الأحداث. لا التى تسعى للوقاية منها فقط.

هذه الحرب التى سبقت الاحداث لا تحمل سوى هم واحد: وهو إزاحة أى تهديد يفترض وجوده بواسطة القوة العسكرية: والهدف المعلن هو منع أى

تحد لسلطة وتميز وموقع الولايات المتحدة.. إن ذلك التحدى إن ظهرت مجرد إشارة لوقوعه الآن أو لاحقا فستقابله الولايات المتحدة وحكامها بشراسة دولة هى أقوى من العالم كله إذا ما تعلق بالأمر بالعنف.

ذلك العنف يدلف الآن من مسالك أخرى مثل تطوير التسلح الفضائى الخطر دون أن يلقى بالا للأعتراض العالمى غير المحدود على ذلك.

الجدير بالذكر أن العبارات السابقة ليست عبارات مقتبسة من ديم تشينى أو دونالد رامسفيلد ولا من أى متطرف يمينى آخر فى السلطة لكنها كلمات مقتبسة من أحد قدامى رجال الدولة المحترمين هو «دان اسستون» قالها من حوالى ٤٠ سنة عندما كان يحاول تبرير تحركات أمريكا ضد كوبا وقت أن كان مستشارا لإدارة كينيدى.. كان اسستون يدرك أن الحملة الأرهابية الدولية التى تستهدف تغيير النظام كاد أن يشعل فى العالم حربا نووية شاملة ورغم ذلك كله تمسك المجتمع الأمريكى بالقانون الدولى.

إن طموح التوسع الاستعمارى للمتحكمين فى السلطة الأمريكية اليوم أثار حالة من الذعر العالمى، هناك ضحايا تقليديون يعرفون التاريخ أكثر من سواهم، لا تريحهم الخطابات الكثيفة التى سمعوا منها الكثير قديما عندما كانوا يتعرضون للضرب على يد أعضاء نادى «المتحضرين».

لقد وصف رئيس دول حركة عدم الانحياز التى تضم معظم حكومات العالم إدارة بوش بأنها إدارة أكثر عدوانية من هتلر والمثير للدهشة أنه واحد من مؤيدى الولايات المتحدة وأحد المنتفعين من مشروعاتها الاقتصادية الدولية.. إن هذا الرجل عندما يتحدث فإنه يتحدث باسم الضحايا والجلادين التقليديين فى نفس الوقت المهم أن نفكر فى ذلك كله بنزاهة دون تعصب.

كان خبراء العلاقات الدولية، قبل تصعيد إدارة بوش من حدة هذه

المخاوف فى الأشهر الأخيرة يحاولون القول بأن سياسات واشنطن قد تؤدى إلى تزايد الارهاب وتكاثر اسلحة الدمار الشامل بهدف الانتقام والردع وأن سبيل واشنطن للتخفيف من حدة أفعالها ومزاعمها لن يخرج عن أمرين الأول أن تخفف من حدة تهديداتها مع ملاحظة الاستياء العالمى الناتج عنها مع احترام النظام والمؤسسات الدولية والحرص على أن تبدو عضوا متحضرا فيه والأمر الثانى على العكس أن تزيد من بناء محركات الدمار والسيطرة الشاملة التى تمكنها من سحق أى تحد مهما بدا بعيدا، الأمر الذى سيثير تحديات أقسى وأصعب وتلك الطريقة تهدد أمريكا والعالم بمخاطر عنيفة قد لا يكون انقراض الاجناس أبعدها عن الحدوث.

لقد تم تفادى الحرب النووية الشاملة فى الماضى بما يشبه المعجزة وكان ذلك قبل أشهر قليلة مما قاله دان اشيسون واليوم تتزايد التهديدات وتتكاثر بشكل بالغ الخطورة والعنف: إن العالم عندما يرقب ما يحدث فى واشنطن بخوف فله الحق فى ذلك لكن مواطنى أمريكا أنفسهم هم من يستطيعون إزالة هذه المخاوف من النفوس واتاحة الطريق لمستقبل أكثر أملا واشراقا.

الاحداث تمضى بسرعة لا يمكن التنبؤ بها، وأعظم قوة فى التاريخ الإنسانى تنطلق نحو عدو عاجز لا يملك الدفاع عن نفسه، بسبب إدارته السياسية التى امتلكت سجلا مرعبا من البربرية والتدمير منذ توليها مقاليد الحكم منذ عشرين سنة.

نعوم تشومسكى

أصبحنا أمة جاهلة..
تخون أصدقاءها!

لقد أمنت بذلك البلد الجميل.. واعجبت بذكاء مؤسسية.. وتفهمت الأجيال الأمريكية المتتالية مبادئ جمهوريتنا السامية.. وكانت تضحيات هذه الأجيال مصدر إلهامى دائما.. لكننى اليوم أبكى على بلادى.. لم تعد صورة أمريكا هى صورتها.. وصار أصدقاؤنا لا يثقون فينا.. صارت كلمتنا محل شك.. ونوايانا موضع سؤال؟!

لقد حاولنا فرض الطاعة على من يختلف معنا.. بدلا من التفاهم معه.. اخترنا عزل أنفسنا عن العالم بدلا من عزل صدام حسين.. إننا نقول: «الولايات المتحدة لها الحق فى صب نيرانها على الارهاب.. دون أن يؤيدنا أحد».. لقد غرتنا قوتنا الزائدة على الحد وملأتنا بغطرسة جعلتنا نعامل مجلس الأمن وكأنه ناكر للجميل يهين كرامتنا لأنه رفض ما نريد.. وفقدنا كثيرين من حلفائنا.. عندما تنتهى الحرب.. سيكون على أمريكا بناء ما هو أكثر من العراق.. سيكون علينا أن نعيد بناء صورتنا التى تهشمت فى نظر العالم.. نحن لا نستطيع إقناع العالم بضرورة هذه الحرب لسبب بسيط وهى أنها «حرب اختيارات».. لا توجد معلومة واحدة يمكن تصديقها.. حول أن صدام حسين له دخل بانفجارات ١١ سبتمبر.. لقد انهار برجا التجارة بسبب جماعة إرهابية خلاياها تنتشر فى ٦٠ دولة هى «القاعدة» وبسبب مواردنا

عندما تحولت طائراتنا إلى صواريخ.. إن ما حدث هو تعبير يائس لأولئك المتطرفين لايقاف اعتدائنا اليومى على ثقافاتهم!! وهو ما يجب أن نحاربه.

الإدارة الأمريكية صبت جام غضبها وخوفها، وفجيعتها التى ولدت من رماد برجى التجارة العالمى نحو «شرير» ملموس يمكننا رؤيته وكراهيته ومهاجمته هو شرير بحق، لكنه الشرير الخطأ فى هذه الحالة، وهذه الحرب أيضا خطأ، لو هاجمنا صدام حسين فربما ننجح فى ابعاده عن السلطة، لكن لحظتها قد نجد أن حلفاءنا الذين يفترض منهم تأييدنا فى الحرب ضد العراق قد انفرط عقدهم.

إن الغموض وعدم الارتياح الذى يحيط بهذه الحرب ليس مجرد «ضوء أحمر» ينذرنا وإنما هناك مساحة بين العجلة والتسرع، والمخاطرة بشن هذه الحرب التى تحفها أسئلة كثيرة بلا جواب: كم من الوقت ستظل الولايات المتحدة فى العراق؟ وما مقابل ذلك؟ ما هى المهمة المحددة هناك؟ وكم يبلغ مدى الخطر الذى يهدد أمريكا!؟

ما الذى يحدث فى هذا البلد؟ متى أصبحنا أمة جاهلة تخون أصدقاءها؟ متى قررنا المجازفة بتفويض النظام العالمى بتبنى مدخل نظرى متطرف لاستخدام قدراتنا العسكرية المرعبة.

كيف أمكننا أن نهجر الجهود الدبلوماسية فى الوقت الذى يصرخ فيه العالم طلبا لها؟

لماذا يبدو هذا الرئيس وكأنه لا يرى أن قوة أمريكا الحقيقية تكمن فى قدرتها على الإلهام وليس فى قدرتها على التدخل؟

إن الحرب تبدو وكأنه من غير الممكن تفاديها لكننى مازلت آمل فى أن تمر الغيمة.. ربما سيضع صدام حسين ذيله بين أسنانه ويهرب، ربما ظل هناك شىء من المنطق فى ذلك كله، إننى أشارك ملايين الأمريكيين الدعاء

من أجل سـلامـة قواتنا، من أجل المدنيين فى العـراق، ومن أجل أمـان وطننا ولندع الله أن يستمر بمباركة الولايات المتحدة فى تلك الأيام العصيبة علنا ننجح يوما فى فهم الرؤية التى عجزنا عن ادراكها اليوم.

سـيناتور: روبرت بيـرد

تقرير تاجوبا
تقرير الجيش الأمريكى
عن فضيحة سجن أبو غريب

كان العنوان الرئيسى لصحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية واسعة الإنتشار والنفوذ، يقول «بوش يعتذر عن الإساءة للسجناء» وكان تحته عنوان آخر ببنط أصغر يقول «الإنتقادات ضد رامسفيلد تتزايد، لكن الرئيس يقول إنه (أى رامسفيلد» باق فى عمله. ولم يكن مهماً أن يعتذر بوش أو لا يعتذر، كما أنه استخدم مصطلح «الإساءة» وبذلك يكون قد اعتذر عن «الإساءة» وليس عن «التعذيب» وهناك فرق كبير. بالطبع. بين الإثنين، يشبه الفرق الكبير بين «التحرير» الذى يعنى به بوش إحتلال العراق. ربما كان على بوش ان يستخدم لفظًا خفيفًا فاستخدمه معذور، فانتخابات نوفمبر اقتربت. وكما يتساقط الرمل من الساعة الرملية، تنخفض شعبية بوش فى استطلاعات الراى الأمريكية فيما تتعاظم شعبية منافسه «كيرى»، ليس لأن كيرى هو الأفضل، ولكن لأن بوش هو الأسوء. بلا منازع، وربما ترى أن استخدام لفظ بدلاً من آخر أمر غير مهم، لكن الحقيقة أنه أمر شديد الأهمية، فالعنوان التالى فى عدد اليوم نفسه من «الواشنطن بوست» كان يقول: «رمسفيلد تحت الهجوم». ألم تقرأ هذا العنوان من قبل؟ نعم قرأته، ولكن منذ حوالى ثلاث سنوات، ولم يتغير فيه سوى كلمة واحدة، فقد كان «أمريكا تحت الهجوم». وكان ذلك عنوان الـ «C.N.N» لأحداث ١١ سبتمبر، فلماذا تعيد «الواشنطن بوست» التى تميل عادة إلى تأييد سياسة اليمين الأمريكى المتطرف، إلى استخدامه؟ الا يوحى ذلك بأن الانتقادات التى يواجهها رامسفيلد - فى رأى الجريدة - توازى أو تساوى فى خطورتها هجمات ١١ سبتمبر؟ أليس غريباً أن يتساوى شخص واحد - هو رامسفيلد - مع أمة كاملة هى أمريكا فى درجة الأهمية؟ لماذا تحاول «واشنطن بوست» أن تبرز أهمية رامسفيلد فى هذا الوقت؟ لماذا تحاول تبرئه من مسئوليته المباشرة عن عمليات التعذيب الوحشية التى ارتكبها جنوده فى العراق؟ ولماذا لم يرد ذكر جورج تينيت مدير المخابرات المركزية؟ برغم التأكد من أن عمليات التعذيب تمت تحت إشراف المسئولين فى وكالته؟ إن تينيت ليس شخصاً مهماً، فقد تحول إلى رجل على رأسه بطحة، لا يهش ولا ينش، منذ إتهامه بالتقصير فى التحذير من هجمات

١١ سبتمبر، ثم إتهام وكالته بزيف معلوماتها عن أسلحة الدمار الشامل العراقية. إنه المدير المناسب للمخابرات الأمريكية فى الوقت المناسب للمخابرات الأمريكية فى الوقت المناسب الذى يريده المحافظون الجدد ليسيطروا على كل شيء فى البلاد، وهذا هو ما حدث بالفعل، فرامسفيلد هو الذى يسيطر على كل شيء الآن، ولذلك فإن رامسفيلد هو كل شيء الآن، وليس بوش. ومن هنا يأتى حرص «واشنطن بوست» عليه. فهو صوت ويد وقدم اليمين المتطرف فى الإدارة الأمريكية، وهو فنان العرائس الذى يحرك بأصابعه الدمية الأكبر فى العالم الآن التى تحمل اسم «جورج بوش» إن سقوط رامسفيلد يعنى ـ بإختصار ـ سقوط بوش، وسقوط بوش يعنى إنهيار الفاترينة التى يعرض فيها اليمين الأمريكى المتطرف سياساته قبل بيعها بالقوة للعالم، وسقوط هذه الفاترينة يعنى أن مشروع اليمين المتطرف لن يكتمل، مشروع السيطرة على العالم، وتحرير البلاد بإحتلالها، لن يكتمل. لذلك فإن كل شيء يتضاءل أمام قيام الإمبراطورية وتوسعها، حتى لو كان هذا الشيء ضد أهم المبادئ الأساسية التى تقوم عليها الأمة الأمريكية، وهى عدم إنتهاك حقوق الإنسان.

ما الذى تعنيه فضيحة سجن أبو غريب. إذن؟ لا شيء، إذا ما قورنت بمصالح الإمبراطورية.

لكن الفضيحة ـ مع ذلك ـ تعنى كل شيء. إن التفاصيل مفزعة، وشهادات الجنود والضحايا مُروعة، وما كتبته صحف العالم عنها هو قليل مما تضمنه التقرير الذى يتكون من (٥٣ صفحة) وأعده الجنرال أنتونيو تاجوبا بتكليف من ريكارو سانشيز قائد القوات الأمريكية فى العراق. ويصلح ما تضمنه التقرير لائحة إتهام لمحاكمة بوش ورامسفيلد وتينيت كمجرمى حرب عن عمليات التعذيب التى كشف التقرير أنها لم تحدث فى سجن أبو غريب وحده وهو مركز الإعتقال المركزى فى بغداد. بل كانت هناك ممارسات مماثلة فى سجون أخرى تقع فى معسكر بوكا، ومعسكر إشراف، ومعسكر

كروبار، لكن سجن أبو غريب وحده هو الذى نال كل الأضواء.

إن سجن أبو غريب يقع على مسافة ٢٠ ميلاً غرب بغداد، وهو لم يكن فى حاجة إلى المزيد من سوء السمعة، لأنه السجن نفسه الذى كان يتعامل معه الأمريكيون بوصفه رمزاً للطغيان «طغيان صدام حسين»، ومبرراً كافياً لغزو العراق وتحرير العراقيين من الإذلال الذى يتعرضون له فى ظل نظام صدام، تمهيداً لتحويل إلى جنة للديمقراطية فى المنطقة. فى عهد صدام، لم يكن أسبوع يمر دون أن يشهد سجن أبو غريب تنفيذ أحكام بالإعدام ضد معارضين عراقيين. وكان عدد نزلاء السجن وقتها حوالى ٥٠ ألفاً بين رجل وامرأة، يعيشون محشورين فى زنازين لا تتجاوز مساحتها ١٢ متراً مربعاً. تستوعبهم واقفين بالكاد. وبعد إنهيار النظام العراقى فى ٩ أبريل ٢٠٠٣، لم يسلم سجن أبو غريب من عمليات النهب التى اجتاحت العاصمة العراقية، فقد تركه الناهبون عارياً من كل شيء يمكن تعريته: الأبواب والنوافذ والبلاط، قبل أن تعيد سلطات الإحتلال ترميمه وتنظيف زنازينه وإصلاح مراحيضه، وتلحق به مركزاً طبياً. لتحوله إلى سجن عسكرى أمريكى. وليس هناك تقدير معلن لعدد سجناء «أبو غريب» فى ثوبه الأمريكى، لكن سيمور هيرش كاتب التحقيقات الأمريكى الشهير فى صحيفة «نيويوركر» يقدر عددهم «بالآلاف» بما فى ذلك النساء والمراهقون من المدنيين..

ويقول أن «عدداً كبيراً منهم تم القبض عليه أثناء عمليات مسح عسكرية عشوائية وفى نقاط تفتيش على الطرق السريعة، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام مختلفة. مجرمون عاديون، ومحتجزون للشك فى إرتكابهم جرائم (!) ضد قوات التحالف وعدد قليل من المشتبه فى كونهم زعماء التمرد (المقاومة) ضد قوات التحالف فهل تغير شيء فى سجن أبو غريب فى عهد صدام إلى عهد بوش؟ ليس هناك من يجيب عن هذا السؤال أفضل من «ضياء الشويرى» إن ضياء هو أحد السجناء الذين أدلوا بشهادتهم فى تقرير تاجويا عن التعذيب فى سجن أبو غريب. ولكن شهادة ضياء تكتسب أهمية

خاصة، لأنه دخل السجن نفسه مرتين فى عهد صدام حسين قضى خلالهما فترات اعتقال طويلة، ووفقاً لنص تقرير تاجوبا يقول ضياء فى شهادته. «الآن أشعر بأننى أفضل تعذيب صدام حسين على الإهانة التى لقيتها من الأمريكيين الذين جردونى من ملابسى. فى عهد صدام تعرضت للصعق بالكهرباء. لكن هذا أرحم من إمتهان آدميتى وبقائى عارياً أمام الحارسات الأمريكيات للإستهزاء برجولتى. كنت أقول لهم: «إقتلونا ولكن لا تفعلوا هذا بنا».

ولكن لم يكن هناك من يسمع. ولذلك فإن ضياء الشويرى إلتحق الآن ـ بعد خروجه من السجن ـ بجيش المهدى التابع لمقتدى الصدر. لتحقيق هدف واحد هو الإنتقام من الأمريكيين، ولم يكن جنود بوش فى سجن أبو غريب يفرقون بين المجرمين الجنائيين والسجناء السياسيين، ولم يكن هناك فرق لديهم بين الذين كانوا يعارضون صدام حسين ورحبوا بهم، ومن يسميهم الأمريكان بقايا النظام البائد، فى إشارة إلى المقاومين، وتقرير تاجوبا يثبت ذلك، فهو يتضمن شهادة لمحام عراقى اسمه (موفق سامى عباس) وموفق هو ابن لواء عراقى سابق ساعد الأمريكيين ضد نظام صدام حسين. لقد أعتقل موفق مع إخوته فى مارس ٢٠٠٣ وهو يقول ـ فى تقرير تاجوبا ـ إنه لم ير النور لعدة أيام «فقد غطوا رأسى بكيس إسود، لم ينزعوه إلا عند إستجوابى» ويضيف «أجبرونى على الركوع والإنحناء حتى انهرت. كانت الراحة مستحيلة طوال اليوم. كانوا يديرون موسيقى صاخبة فى مكبرات صوت كنوع من الضغط النفسى. عادة ما كانت الأغنيات التى يديرونها بصوت صاخب من نوع « الأولاد المتوحشون» و«لا نوم حتى الوصول إلى بروكلين» ولم أكن قادراً على النوم ولم يصدق موفق عباس ما سمعه عن وحشية الجنود الأمريكيين حتى ذاقها بنفسه. لقد حصل والده على شهادة من القوات الأمريكية تشير بتعاونه ومساعدته لها، لكن هذا لم يشفع له، ولم يجعله ينجو من هذه الوحشية يقول موفق: «هذه الوحشية هى السبب فى تزايد أعداء قوات التحالف، وهى السبب فى ظهور المقاومة» وليس صحيحا ـ بالطبع ـ ما تحاول وسائل الإعلام الأمريكية أن توحى به، وهو أن عمليات التعذيب فى

سجن أبو غريب ليست سوى سلوكيات فردية. إن الجنرال مارك كيميث قال إن حالات التعذيب لم يشارك فيها سوى ٢٠ جندياً. ولكن أبو سالم - السجين الذى سجل شهادته فى التقرير يقول «إن كلام كيميث هو ادعاء كاذب». وأُعتقل أبو سالم فى يناير الماضى قبل زيارة الصليب الأحمر للسجن، وعندما دخله أُصيب بصدمة كبيرة بعد أن رأى المعتقلين عرايا طوال الوقت. يقول أبو سالم: «كل الجنود - بلا إستثناء - كانوا يمارسون كل أنواع التعذيب فى حقنا» ولكن فى الليلة التى سبقت زيارة الصليب الأحمر للسجن، قدم لهم الأمريكيون ملابس جديدة مع تحذير من الشكوى للصليب الأحمر. لأن هذا سيكون معناه السجن الأبدى للشاكى.

فى ١٩ يناير ٢٠٠٤ - حسب ما ورد فى مقدمة تقرير تاجوبا - طلب الجنرال سانشيز قائد القوات الأمريكية فى العراق من قائد القيادة الوسطى «التى تشمل الشرق الأوسط الكبير من أفغانستان إلى المغرب» تعيين ضابط تحقيقات برتبة جنرال للتحقيق فى مسار العمليات داخل اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية. وطلب سانشيز التحقيق فى عمليات الإعتقال والإحتجاز التى يقوم بها اللواء ٨٠٠ إعتباراً من أول نوفمبر ٢٠٠٣ وأشار سانشيز فى طلبه إلى تقارير عن إنتهاكات ضد المحتجزين. وهروب بعض السجناء، وإلى مشكلات منهجية داخل هذا اللواء تثبت عدم وجود معايير واضحة، ونقصاً فى المهارة وخللاً فى القيادة، وطلب إجراء إستجواب شامل للتوصل إلى نتائج وتوصيات عن سلامة أداء اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية وفى ٢٤ يناير طلب الجنرال «ديفيد چاكيزان» من قائد القوات البرية إجراء تحقيق حول عمليات الإحتجاز التى يقوم بها اللواء ٨٠٠ إعتباراً من نوفمبر ٢٠٠٣ وأصدرت القيادة توجيهات بأن يناقش التحقيق كافة الوقائع والملابسات المتعلقة بالتقارير الأخيرة عن إنتهاكات مورست ضد السجناء العراقيين وفى ٣١ يناير أصدر قائد القوات البرية قرار تكليف الجنرال «أنتونيو تاجوبا» نائب قائد الدعم العام بإجراء هذا التحقيق. وكانت مهمة تاجوبا محددة فى ثلاث نقاط.

(١) البحث فى إدعاءات سوء المعاملة فى سجن أبو غريب.

(٢) البحث فى عمليات هروب المحتجزين والتراخى فى المسئولية فى اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية.

(٣) وضع أى توصيات من شأنها تصحيح الأوضاع.

ولكن ما بدأ برغبة فى تصحيح الأوضاع تحول إلى فضيحة نهدد المستقبل السياسى للرئيس الأمريكى نفسه ومن يقفون خلفه من صقور اليمين المتطرف الموالى لإسرائيل. وكانت تفاصيل التقرير «مفزعة» حتى لتاجوبا نفسه. وقد بدأ تاجوبا تقريره بتعقيب موجز على تقريرين سابقين أعد أولهما الجنرال «جيفرى ميللر» عن عمليات الإعتقال ومكافحة الإرهاب فى العراق، وأعد الثانى الجنرال رايدر عن عمليات الإعتقال والإستجواب فى العراق. وفى تعليقه على التقريرين أشار تاجوبا إلى عدم وجود معيار موحد للتعامل مع السجناء فى العراق كما أشار إلى عدم التمييز بين السجناء السياسيين والمجرمين. ولاحظ أن تقرير ميللر يشجع على مشاركة الجنود بصورة إيجابية فى عمليات التحقيق مع المعتقلين، وهو أمر يعتبره تاجوبا متعارضاً مع الدور المنوط بهم تنفيذه. وضم تقرير تاجوبا عشرات الشهادات من الجنود والسجناء فى عدة معسكرات أمريكية فى العراق والكويت جمعها فى زيارات مع فريق التحقيق ـ لعدة مراكز اعتقال أهمها سجن أبو غريب.

وجمع تاجوبا العديد من الأدلة على وقوع انتهاكات لحقوق الإنسان فى السجن كانت عبارة عن صور فوتوغرافية وأفلام فيديو تصور بالتفصيل انتهاكات ضد السجناء فى الفترة من أكتوبر إلى ديسمبر الماضيين. وفى أوائل فبراير أجرى فريق تاجوبا مقابلات مع الجنود المتهمين. وحصل منهم على اعترافات بما ارتكبوه. كما قابل عشرات الضباط والجنود العاملين فى اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية، واستعان الفريق أيضاً بشهادات ضباط وجنود آخرين فى تحقيقات تتعلق بانتهاكات سابقة بين أكتوبر وديسمبر الماضيين، وقع العديد من الانتهاكات التى يصفها تاجوبا بالنص فى تقريره بأنها «مادية ووقحة وصارخة ضد الكثير من المحتجزين» ويقول تاجوبا: إن «هذه الإنهاكات

الإجرامية مارسها بصورة منظمة ومتعمَّدة العديد من جنود الشرطة العسكرية التابعين للفصيلة ٣٧٢ شرطة عسكرية داخل أحد أقسام سجن أبو غريب. ودعم أقواله بالتأكيد على وجود صور فوتوغرافية، لكنه لم يضم هذه الصور إلى التقرير «نظراً لطبيعتها الحساسة» حسب تبريره، ويضيف تقرير تاجوبا إن «وحدات أخرى داخل السجن نفسه مارست انتهاكات ضد السجناء» ومنها مركز الاستجواب المشترك والكتيبة ٣٢٥ شرطة عسكرية التابعة للواء ٢٠٥، إن نظرة سريعة على النقاط التى أوردها تاجوبا فى تقريره تكشف حجم الجريمة التى كان يصعب كشفها لولا حلقة في برنامج «٦٠ دقيقة» فتقرير تاجوبا هو تقرير عسكرى سرِّى يخص الجيش الأمريكى، ولو لم تبث شبكة سى. بى. إس التلفزيونية الأمريكية هذه الحلقة من «٦٠ دقيقة» التى عرضت صور التعذيب، فربما كان بإمكان الإدارة الأمريكية أن تدفن تقرير تاجوبا. إلى ما بعد نهاية الانتخابات على الأقل.

هذه نقاط مفزعة يعرض فيها تاجوبا أمثلة على الجرائم التى تعرض لها المراقيون فى سجن أبى غريب ومنها:

- توجيه الركلات واللكمات للمساجين وقفز الجنود بأحذيتهم العسكرية على أقدام السجناء العراة.
- إجبار مجموعات من السجناء على الإشتراك فى أوضاع جنسية فاضحة لتصويرهم.
- تصوير السجناء والسجينات فوتوغرافيا وبكاميرات الفيديو. وهم عراة تماماً.
- إجبار محتجزين على الاستمناء وتصويرهم أثناء القيام بذلك.
- الاصرار على أن يرتدى السجناء الذكور ملابس داخلية نسائية.
- تكويم الأجساد العارية فوق بعضها البعض وقفز الجنود عليها. فيما يشبه الأكروبات.

- كتابة جملة «أنا مغتصب» على قدم سجين بعد إتهامه باغتصاب سجين آخر.
- توصيل الكهرباء بأطراف السجناء وأعضائهم التناسلية للإستمتاع بمنظرهم وهم يرتعشون وينتفضون.
- وضع أطواق الكلاب حول رقاب السجناء ثم جرهم بالسلاسل على الأرض.
- الإعتداء جنسياً على سجينة عراقية.
- استخدام الكلاب العسكرية المدربة لتخويف السجناء، والسماح لهم بنهش لحمهم واحداث إصابات بالغة بهم.
- إلتقاط الجنود صور تذكارية بجوار جثث ضحاياهم من السجناء العراقيين الذين ماتوا تحت التعذيب.

ويقول الجنرال تاجويا إن هذه الوقائع أكدها عدد من الجنود المتهمين الذين يعملون داخل الوحدة المكلفة بحراسة السجن كما أكدها عدد من الأطباء العسكريين وقادة الفصائل التابعة للوحدات، وقد اعتمد تقرير تاجويا أيضاً على شهادات عشرات من السجناء العراقيين الذين ألقوا الضوء على طرق أخرى فى التعذيب يلخصها التقرير فى النقاط التالية.

- تهديد السجناء بإطلاق الرصاص على رؤوسهم. وإطلاق أعيرة بالفعل فوق رؤوس البعض.
- التهديد بإغتصاب الرجال.
- إغتصاب عدد من السجناء الذكور بالفعل.
- تعذيب السجناء بالضغط على أماكن إصاباتهم التى أصيبوا بها أثناء عمليات التعذيب.
- سكب الماء المثلج على أجساد السجناء العارية، ولفهم بأكياس الثلج.
- سكب سوائل فوسفورية على المساجين وتعريضهم لأضواء كيماوية.

- ضرب الرجال بمؤخرات البنادق فى مناطق حساسة بهدف إخصائهم.

- وضع «عُصيتان المكانس في المؤخرات بعد غمسها فى مواد حارقة.

- إجبار الرجال على ممارسة الجنس مع بعضهم البعض من خلال الفم.

وقد تأكد الجنرال تاجويا من صحة حدوث هذه الإنتهاكات عندما إستعان بشهادات محتجزين آخرين. أفادوا بحدوث إنتهاكات مماثلة. ويقول أنه وجد أدلة على مشاركة الحراس فى التعذيب البدنى بهدف تهيئة الظروف للمحققين للحصول على اعترافات وأثبت تاجويا شهادات عدد من المتهمين، ومنهم العريف سابرينا فى إعترافاتها.

«كانت مهمتى حرمان السجناء من النوم. لقد أخبرنى مسئولو المخابرات العسكرية بأنهم يريدون من زملائى مساعدة المخابرات العسكرية على إجبار المعتقلين على الاعتراف» ويؤكد جافال دافيز وهو أحد جنود الفصيلة نفسها فى شهادته.

«شاهدت المساجين فى القسم التابع للمخابرات العسكرية، وتحديداً فى الجناح A1، مجبرين على القيام بأفعال كنت أتشكك فى صحتها أخلاقيا. مسئولو المخابرات العسكرية أخبرونى - أنا وزملائى - بأن هذا القسم يتبع قواعد مختلفة فى التعامل مع السجناء، المسئول عن هذا الجزء من السجن هو عريف يُدعى جرانيير وقد أخبرنى بأن رجال المخابرات العسكرية ووكالات أخرى (يقصد - على الأرجح - وكالة المخابرات المركزية) طلبوا منه القيام بتلك الإنتهاكات ضد السجناء. وقال له إن الأوامر تصدر شفاهة، وعندما سأل جرانيير عن سبب عدم إخطاره قيادته بما يحدث، أجاب «لقد إفترضت أنهم لا يتصرفون من تلقاء أنفسهم، كما أن هذا القسم من السجن كان تابعاً للمخابرات العسكرية، وكان من الواضح أنهم موافقون على ذلك»، ويقول جافال دافيز أيضاً لمحقق فريق تاجويا أنه سمع أحد أفراد المخابرات العسكرية يطلب من زملائه تعذيب معتقل عراقى قائلاً له بالحرف «مهمتك

تلين عـزيمته من أجلنا. عليك أن تتأكـد من أنه عومل أسوأ معـاملة». كما سمع دافيز رجال المخابرات العسكرية يكيلون المديح لزميله جرانيير على ما قام به قائلين «عمل رائع، هؤلاء السجناء ينهارون بسرعة هائلة، ويجيبون على كل الأسئلة ونحن نحصل منهم على معلومات جيدة. لذلك عليك الإستمرار فى أداء هذا العمل الرائع».

ويقول مجند يدعى جيسـون كينل من الفصيلة ٣٧٢ شرطة عسكرية للجنة تاجـويا: «شـاهـدت المحـتـجـزين العـراقـيين عـراة، وكـان ذلك بنـاء على تعليمـات من المخـابرات العـسكرية». وهناك شـهـادة أخرى لأحد أفراد كتيبة الدعم الطبى. وهو «نيل والينى» الذى يقـول: «كانت الزنزانة A1 مخـصـصـة للمـحـتـجـزين ذوى الأهمـيـة المعلومـاتيـة. وعند زيارتى للسجن وجـدت الجنود يجـبـرون بعض السـجناء على إرتداء مـلابس داخليـة نسـائيـة لدفـعـهم إلى الإنهيار والإعتراف».

ولكن المفاجـأة فى شـهـادات المتهـمين التى أوردها تقـرير تاجـويا. هى شهادة «عادل نخلة» إن عادل نخلة هو مترجم أمريكى من أصل مصرى، واجه إتهاماً بالاعتداء الجنسى على عدة سـجناء عراقيين. وقـال فى شـهـادته أنه شـاهـد السـجناء عـراة وأن العـريف جـرانيـيـر وعـدداً من رجـال المخـابرات العسكرية أمروا السجناء بالقيام بأفعال غريبة منها القفز إلى أعلى. مع إلقاء الماء البارد على أجسـادهم العارية، وتوجيه السباب إليهم أثناء إستجوابهم للحصـول على إعترافات منهم ويقـول «لقد شـاهـدت سـجناء مقيدى الأيدى والأرجل، مكومين عراة فوق بعضهم البعض».

كـانت الإعـتـرافـات التى أوردها تقـرير تاجـويا صـادمـة بشكل مـروع للأمـريكيين والبـريطانيين والأوروبين. والكثيـر من العرب لكن الصدمة كانت أكبـر على العراقيين الذين كانوا يأملون فى الخلاص من عذاب نظام صدام حسين فوجدوا أنفسهم يذوقون عـذابا أشـد، وغيـر متوقع من الأمـريكيين الذين جاءوهم رافعين رايات الديمقراطية وحقوق الإنسان. وكان حيدر صابر

أحد هؤلاء المصدومين بما حدث. وربما لو لم يتعرض لهذا التعذيب لما كان بإمكانه أن يصدق الحكايات التى تتردد عنه. إن حيدر صابر هو صاحب الصور التى نشرت وكان عارياً ومعلقاً. وقد روى قصته لأكثر من جريدة أمريكية منها نيويورك تايمز ولوس انجلوس تايمز وبات رمزاً لفضيحة سجن أبو غريب. يقول حيدر: «لم يخطر على بالى مطلقاً أن يفعل الأمريكيون ذلك» إن حيدر ينتمى إلى عائلة لها تاريخ عريق فى معارضة صدام حسين. وقد تعرض للتعذيب أثناء نظام الرئيس المخلوع أثناء إعتقاله منذ ٨ سنوات، بسبب محاولة من ابن عمه لإغتيال عُدى ولا يزال ذراع حيدر الأيمن يحمل آثار هذا التعذيب. لذلك كان واحداً من اشد المبتهجين بدخول الجيش الأمريكى إلى العراق. ورحب به. لقد قضى أغلب فترة خدمته العسكرية هارباً، وكان من أشد المناهضين لنظام الديكتاتور السابق. لذلك لم يخطر بباله فى أى وقت أن يصبح الضحية الأكثر شهرة فى قضية الانتهاكات الأمريكية بعد أن وجد نفسه فجأة واحداً من المسجونين داخل زنازين إنفرادية شديدة القسوة فى سجن أبو غريب سيىء السمعة.

كان كل شىء يمضى عادياً بالنسبة لحيدر فى يومه الأول داخل سجن أبو غريب لكن الأمور تبدلت عندما حل المساء، فقد فوجئ بالحراس الأمريكيين يعرون السجناء ويربطون أيديهم فى زوايا غريبة إلى قوائم الأسرة وفى الصباح وجدوا رعاية طبية ووجبتين من الطعام. ولم يتعرض حيدر لإنتهاك جنسى سوى مرة واحدة، فقد أرغم مع رجال آخرين على التعرى وممارسة العادة السرية والشذوذ فيما كانت مجندة أمريكية تسجل كل ذلك بالكاميرا . كان حيدر على الأرض فى الجهة اليسرى بين كومة الرجال العراة. وفى صورة أخرى كان هو الرجل مغطى الرأس الذى يشار - بطريقة مذلة - إلى أعضائه التناسلية من امرأة مجندة تدخن. كان من السهل أن يكتشف حيدر نفسه فى الصور. لأنه يتذكر الأوضاع المهينة التى أرغموه على إتخاذها كما أنهم كانوا يرفعون عنه غطاء الرأس من حين إلى آخر. وهو ما جعله يتذكر المشهد كيف وصل حيدر إلى سجن أبو غريب؟

هذه حكاية أخرى. إن حيدر يعيش فى مدينة الناصرية. وقد استأجر سيارة للذهاب إلى بغداد. لكن السائق لم يكن لديه وثائق تثبت ملكيته للسيارة. فاعتقلت نقطة تفتيش أمريكية قرب بغداد سائق السيارة وبالمرة اعتقلت حيدر ايضاً. وفى سجن أبو غريب كان حيدر ضمن سبعة سجناء وضع الحراس أكياس على رأوسهم وربطوهم ببعضهم البعض، وسحبوهم لمسافة ٤٠٠ ياردة إلى الزنازين الإنفرادية وبعد ضربهم أمرهم الجنود بخلع ملابسهم. يقول حيدر فى حوار معه أجرته «لوس انجلوس تايمز» ونقلته عنها «الشرق الأوسط».

«رفضنا القيام بذلك، فهو عمل يتنافى مع أعرافنا. وقد أبلغناهم بذلك لكنهم قالوا من الأفضل لكم خلع ملابسكم. وإلا تعرضتم للضرب. لكننا أصررنا على الرفض»

وإزاء هذا الإصرار ـ يضيف حيدر ـ تناول قائد المجموعة سكيناً ومزق ملابسنا، وسكب الجنود ماءً بارداً على أجسادنا، وأخذو يضربون رؤوسنا فى الجدران، ويقول حيدر.

«بعد حوالى ساعتين من الضرب أرغمنا الجنود على التكوم والتعرى ووضع الأكياس على رؤوسنا، بحيث نكون على شكل هرم بشرى. ثم أخذانى الخراس جانباً. ونزعوا غطاء رأسى، فوجدت نفسى وجهاً لوجه مع المجندة التى كانت تصورنا، وفوجئت بها تأمرنى بالإستمناء، بينما كانت تضغط على نهديها، وتضحك، وعندما أبديت إحتجاجى على ذلك أوسعونى ضرباً، كنت فى حالة رعب، كنت أرتجف، وكانوا يضربوننى، ولذلك لم اتمكن من فعل ما يريدون. لكنهم وضعوا الغطاء على رأسى ثانية وأمرونى بالإستمناء مرة أخرى. وجعلونى أتحسس وجه شخص اعتقدت أنه امرأة، لكنهم مزقوا غطاء رأسى، فاكتشفت أن قضيبى يلامس جسد سجين آخر وهو ما جعلهم يغرقون فى الضحك كانوا يربطوننى مع زملائى من رقابنا كالحيوانات. وأصدر قائد المجموعة أمراً لنا بأن نجلس فى وضعية الكلب. كان ذلك يستمر بشكل

متواصل لمدة ثلاثة أيام أحياناً. أو ١٠ أيام فى أحيان أخرى» إن المجندة التى كان حيدر يتحدث عنها هى «ليندى إنجلاند» وقد عادت إلى بلادها. قبل الإعلان عن فضيحة سجن أبو غريب. وفور عودتها قالت لوالدها إنها حامل. وليس بإمكان أحد أن يرجح إذا ما كان الجنين الذى تحمله فى بطنها هو ابن جندى أمريكى أم ابن سجين عراقى.

تنتمى ليندى إنجلاند إلى عائلة فقيرة يعمل أبوها عاملاً فى السكك الحديدية وقبل إلتحاقها بالجيش كانت تعمل وقتاً طويلاً لتوفر مصاريف دراستها وعندما أعلنت شبكة «سى. بى. إس» عن الفضيحة. اتصلت الشبكة بصديق لها قال: «إنها لم تكن يوماً سبباً فى أية مشكلة لأحد» وقال والدها كينيث إنجلاند لـ «واشنطن بوست» كانت ليندى تتولى مهاماً إدارية فى السجن. وقد وقفت لإلتقاط الصورة مع جنود آخرين». المسألة بسيطة. إذن كما يراها والد ليندى. فما كل هذه الضجة؟ ولأن المسألة بسيطة هكذا فإن ليندى لم تتعرض إلى الآن لأية ملاحقات عسكرية فى إطار القضية. لم يشعر والدها بالذنب كيف يمكن أن يشعروا بالذنب إذا كانوا يؤمنون بأن العرب هم مجرد حيوانات يجب تقييدهم بأطواق الكلاب؟

لكن، برغم ذلك. هناك من لا يزال قادراً على أن يرى الجريمة جريمة إن «سيمور هيرش» مثلاً هو كاتب تحقيقات شهير فى جريدة «النيويوركر» وهو معروف بأنه من الكتاب الذين يميلون إلى معاداة العرب، لكنه كتب تحقيقاً فى جريدته يُدين هذه الممارسات ويشبه فيه سجن أبو غريب بمعتقل جوانتانامو. لكن هذا التشبيه الصادق فى وقائع التعذيب يدفعك إلى التساؤل عن الفارق بين معتقلى جوانتانامو ومعتقلى أبو غريب؟!!

عدة تقارير
عن الإنتهاكات الأمريكية
فى العراق بعد الغزو

تقرير للجيش الأمريكى يعترف بتعذيب الأسرى العراقيين

«كاربنيسكى» المتهمة فى احداث «أبو غريب» تؤكد تورط المخابرات المركزية فى الفضيحة مظاهرات فى نيويورك تطلب انسحاب قوات الاحتلال من العراق.. فورا عواصم العالم وكالات الأنباء

تم أمس كشف النقاب عن فضائح جديدة فى قضية التعذيب الوحشى التى تعرض لها السجناء العراقيون على يد قوات الاحتلال الأمريكى فى سجن «أبو غريب» اعترف تقرير اعده الجيش الأمريكى أن الجنود الأمريكيين ارتكبوا اعمال تعذيب وحشية ولا أخلاقية ضد السجناء العراقيين أكد التقرير الذى تم اعداده فى شهر فبراير الماضى ونشرته مجلة «نيوريوركر» الأمريكية أن الجنود الأمريكيين مارسوا سلوكا وحشيا وإجراميا وغير إنسانى فى سجن «أبو غريب» كما اعترف التقرير بأن السجناء العراقيين تعرضوا للاغتصاب والعنف السادى والوحشى والإجرامى مثل اللواط والضرب المبرح والإساءة المهينة بالكرامة وأكد التقرير الذى اعده الجنرال انتوينو تاجوبا بناء على طلب الجنرال ريكاردو سانشيز قائد القوات الأمريكية فى العراق أن الجنود الأمريكيين ارتكبوا سلسلة من الممارسات غير القانونية واللاإنسانية

ضد السجناء.

وأوضح التقرير أن هذه الممارسات شملت رش سائل فوسفورى على السجناء وضربهم بشكل مبرح بالعصى والكراسى وتهديد الرجال منهم والنساء بالإغتصاب فضلا عن وضع عصى فى مؤخرة المعتقلين. وأشار التقرير - الذى نقلت شبكة «بى. بى. سى» البريطانية مقتطفات منه - إلى أن الجنود الأمريكيون سمحوا لفرد من الشرطة العسكرية الأمريكية بخياطة جزح محتجز مصاب بعد أن ضربوه فى حائط الزنزانة وأشارت المصادر إلى أن الأدلة التى اعتمد عليها التقرير - الذى يشكل وصمة عار فى جبين الولايات المتحدة - كانت عبارة عن شهادة لشهود عيان وصور فوتوغرافية شديدة الوضوح حول هذه الفضيحة.

واعترفت الجنرال «جانيس كارينسكى» - التى كانت تتولى قيادة سجن أبو غريب - بأن تعذيب السجناء العراقيين كان بتشجيع من ضباط المخابرات الأمريكية.

وقالت «كاريينسكى فى تصريحات لصحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية أنها قررت التحدث لأنها إستشعرت أن القادة العسكريين يحاولون إلقاء التهمة عليها وعلى جنودها فقط وإبعاد الشبهة عن ضباط المخابرات الأمريكيين العاملين فى العراق. وكشفت شبكة «سى. إن. إن» الإمريكية أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الـ «سى أى إيه» تشارك حالياً فى التحقيقات الجارية حول فضيحة تعذيب السجناء العراقيين واوضحت الشبكة أن التحقيقات تتركز حالياً. حول الجنود الأمريكيين الستة الذين شاركوا فى تعذيب وإمتهان كرامة الأسرى العراقيين واندلعت المظاهرات فى وسط حى مانهاتن بنيويورك للمطالبة بسحب قوات الإحتلال الأمريكى من العراق فوراً.

حارسات السجن تعرضن لإنتهاكات جنسية أثناء التدريب في بريطانيا.

إستمر أمس الكشف عن تفاصيل مشينة جديدة في فضيحة تعذيب الأسرى العراقيين في الوقت الذي تزايدت فيه التوقعات بإتساع نطاق الفضيحة وخروجها عن السيطرة.

أعلن السيناتور الجمهوري ليندساي جراهام قاضي العسكريين الإحتياط أن فضيحة التعذيب قد تتصاعد على ضوء تقدم التحقيقات «وما خفي كان أعظم».

واعترفت المجندة الأمريكية سابرينا هارمان والتي تظهر في بعض صور التعذيب أن مهمتها كانت تحويل سجن أبو غريب إلى «جحيم». وأوضحت هارمان في رسالة عبر الإنترنت لصحيفة واشنطن بوست أنها كانت مكلفة بجعل المعتقلين ينهارون إستعداداً للإستجواب وقالت:

«كانت مهمة الشرطة العسكرية جعلهم متيقظين وتحويل الأمر إلى جحيم حتى يتكلموا».

«وسابرينا هي التي ظهرت بجانب سجناء عراقيين عرايا ثم تكويمهم فوق بعض على شكل هرم. كما إتهمت سابرينا بضرب معتقلين وتوصيل أسلاك بيدي سجين أثناء وقوفه على صندوق ورأسه مغطى.

ودافع جندي أمريكي من زبانية التعذيب في سجن أبو غريب عن قيامه بقتل ٢ من العراقيين أثناء احداث شغب وبرر السرجنت تيري ستو ٤٤ عاماً أفعاله بزعم أنه كان يتصرف لمنع عنف أكبر.

واتهم «ستو» الجيش والسياسيين في واشنطن بالمسئولية عن الأوضاع المتدهورة وتجاهل الحقائق في العراق. وقال أن القيادة في الجيش مشغولة بأمور السياسة لدرجة إنهم لا يريدون أن يعرفوا الواقع الحقيقي.

واعترف «ستو» بأنه أطلق الرصاص على حشد يضم ٢٠ شخصاً شاركوا فى مشاجرة إندلعت أثناء مباراة لكرة القدم. كما اعترف إنه فى إحدى المرات أطلق رصاصة مطاطية على سجين رفض أن يجلس.

وأكد «ستو» أنه لن يغير سلوكياته لو عاد مرة أخرى إلى سجن «أبو غريب». واستمر الجدل حول الجهة التى كانت مسئولة عن سجن أبو غريب أثناء وقائع التعذيب. وكشف الجنرال «لانس سميث» نائب قائد القيادة المركزية أن الجنرال «ريكاردو سانشيز» قائد القوات البرية الأمريكية فى العراق وقع أمرا فى نوفمبر لوضع الشرطة العسكرية فى أبو غريب تحت قيادة المخابرات العسكرية.

واضاف إنه تم الغاء هذا الأمر بعد ذلك واوضح النائب الجمهورى هينز ويلسون أن هذا الأمر اسهم فى التخبط بشأن المسئول عن السجن وما إذا كان الحراس تلقوا الأوامر من مسئولى المخابرات العسكرية الذين يقومون بعمليات الاستجواب وواجه الجنود البريطانيون اتهامات جديدة أمس بتعذيب السجناء فى العراق مع كشف أحد الأسرى عن تعرضه لضرب وحشى من جنود وهم يضحكون وفى بيان لشاهد عيان حصلت عليه صحيفة «اند بندنت» اكد المهندس كفاح طه إنه اصيب بفشل كلوى بعد قيام جنود بريطانيين بضربه على مدى ٣ ايام فى سبتمبر ٢٠٠٣ وقال أن الجنود كانوا يحيطون بنا ركلا لمسافة ابعد واضاف أن الجنود كانوا يستمتعون بذلك ويضحكون بصوت عال أثناء الضرب وإنهم أرغموه على الرقص أمامهم واشار إلى أن أحد المعتقلين معه وهو موظف استقبال اسمه بهاء موسى توفى متأثرا بجروحه ونشرت صحيفة «ديلى ميرور» البريطانية فى صفحتها الأولى صورا جديدة تثبت تورط الجنود البريطانيين فى عمليات التعذيب ويظهر فى الصورة جندى بريطانى يأخذ «صورة تذكار النصر لرجل عراقى يسيل الدم من أسنانه فى مؤخرة عربة عسكرية.

أوضح الجندى البريطانى الذى ظهر فى الصورة إنه التقطها ليريها

لأهله واصدقائه حتى يبدو «قويا» أمامهم وأكد وجود اقراص «سي دى» تحمل كل واحدة منها على الأقل ٥٠٠ صورة من هذا النوع فى كل مكان واضاف إنه شارك ١٢ على الأقل من زملائه فى ضرب وركل سجين عراقى مقيد اليدين.

وكشفت مصادر عسكرية بريطانية أن قوات الاحتلال البريطانية والأمريكية تلقت تدريبا خاصا على اساليب التعذيب المتنوعة التى تم تصنيفها فى نظام خاص يعرف باسم رمزى هو «ار ٢١» حول المقاومة للاستجواب ويعد اصل كل ما جرى من ممارسات غير إنسانية فى سجن أبو غريب.

ونقلت صحيفة الجارديان عن ضابط سابق من القوات البريطانية إنه تم تدريب جنود الاستخبارات العسكرية البريطانيين الأمريكيين فى مركز للخدمات الخاصة للاستجواب واشار إلى وجود عدد كبير من المعلومات عن اساليب التعذيب والاستجواب لدى جنود سابقين فى القوات الخاصة تم استئجارهم للعمل كمرتزقة.

وقال الضابط أن فى مقدمة اساليب الأمتهان نزع الملابس عن السجناء والامعان فى إذلالهم تحت شعار «اطيلوا مد صدمة الاسر» وتم استخدام حارسات من النساء فى التعذيب الجنسى للسجناء الرجال وتم تدريبهن فى بريطانيا.

واضاف إنه عندما كان بعضهن يبدى بعض التأفف والمقاومة فى التدريب كان يتم اخضاعهن لاساليب جنسية منحرفة مثل السحاق واضاف أن الجنود الأمريكيين يدركون تماما حجم المعاناة التى يسببونها للمراقبين ويعتقدون إنهم يتعاملون مع الاعداء المسئولين من هجمات ١١ سبتمبر.

مقال روبرت فيسك فى صحيفة «الإندبندانت» البريطانية
أمريكا استعانت بإسرائليين لتعذيب العراقيين

ألمح الكاتب البريطانى الشهير روبرت فيسك فى مقال بصحيفة «الإندبندانت» البريطانية إلى تورط الإسرائيليين فى عمليات تعذيب السجناء العراقيين فى سجن «أبو غريب» اشار فيسك إلى أن القوات الأمريكية تعاقدت مع محققين غرباء غامضين تحيط بهم الشكوك دون أن يكون لقادة السجن أى سلطان عليهم وقارن فيسك بين الإرهاب الذى يمارسه تنظيم القاعدة والإرهاب الذى مارسه الجنود الأمريكيون فى معتقل «أبو غريب» وفيما يلى نص مقال روبرت فيسك:

فى البداية ابتكر اعداؤنا الهجوم الانتحارى والآن فإننا ابتكرنا نسختنا الخاصة من الهجوم الانتحارى الرقمى.. الكاميرا فقط انظر إلى الطريقة التى تجريها المجندة الأمريكية ليندای انجلاند أسيرا عراقيا عاريا وملتحيا وقد ربطته من عنقه بسلاسل جر الكلاب لا توجد مشاهد سينمائية سادية يمكن أن تحدث صورا بمقدار الضرر الذى احدثته هذه الصورة وإذا كانت طائرات الإرهابيين فى سبتمبر عام ٢٠٠١ قد حولت مبنى مركز التجارة العالمى إلى كومة من الحطام وإذا كان المهاجم الانتحارى الإسلامى يصرخ الله أكبر فما الذى فعله شريك ليندای فى الجريمة ولماذا كانت حديقة منزله مليئة بصور ايات فى كتاب «الهوسة عن البذر والحرث والصلاح والاستقامة

هل كان يمكن للإسلام أن يحتك عن قرب مع الاجواء الجنسية التى تشيع فى العهد القديم وهل كان يمكن للمجندة ليندای المؤمنة بأفكار المحافظين الجدد المسيحيين والتى تذهب إلى الكنيسة بانتظام أن تصطدم بصورة عنيفة ومتمردة وفاحشة مع الإسلام ومن هو البرئ فى هذه الصور التى اخفيت فيها الوجوه؟ هل هم زبانية التعذيب والإذلال أم هم الضحايا العراقيون ويخشى الرئيس بوش من رد فعل العالم العربى على هذه الصور لماذا؟ لأنه ومنذ عام تقريبا يحاول العراقيون ابلاغ الصحفيين بالمعاملة الوحشية التى يتعرضون لها على ايدى قوات الاحتلال إنهم لا يحتاجون الآن إلى هذه الصور الإجرامية لكى تثبت لهم ما يعرفونه بالفعل ولكن فى تاريخ الشرق الأوسط فإن لهذه الصور نفس التأثير المدمر الذى احدثته صور الحرب فى فيتنام والتى يظهر فيها قائد شرطة سايجون وهو يعدم سجينا فيتناميا من «الفايتكونج» أو صورة الفتاة العارية التى يحترق جسدها بالنابلم أو أكوام الجثث فى مدينة ماى لاى أما بالنسبة للعرب فإن المقابل الموضوعى لصور الحرب فى فيتنام هو صور الجثث فى مذبحة دير ياسين والمجازر الفلسطينية فى صبرا وشاتيلا ولم يمر وقت طويل بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد فى ابريل من العام الماضى حتى وضع العالم ايديه على شرائط فيديو تصور مشاهد الجلد الوحشية لسجناء عراقيين فى سجون صدام ولست ادرى فى أى دائرة من جهنم كانت تدور هذه الوقائع السادية والتى مازالت لدى نسخة من شريط مدته ٤٥ دقيقة.

لقد جلدوهم واستمروا فى جلدهم حتى تحطمت العصى فوق اعناقهم وتم إلقاؤهم داخل مواسير الصرف الصحى وانكمشوا مرتعدين مثل الكلاب والسؤال لماذا تم تصوير جرائم الحرب هذه لقد ظننت فى البداية أن التصوير تم من إجل امتاع صدام وابنه المقزز عدى ولكننى ادركت الآن أن التصوير تم من أجل إذلال وتحطيم معنويات السجناء واستخدمت معاناتهم وتوسلاتهم المثيرة للشفقة وسلوكياتهم التى تشبه الحيوانات لإضافة طبقة جديدة من الاحتقار إلى مصيرهم والآن ادركت أيضا أن صور التعذيب وسوء

المعاملة التى تعرض لها السجناء العراقيون على يد القوات الأمريكية التقطت للسبب نفسه تماما شخص ما قرر أن هذه الصور سوف تكون القشة الأخيرة ونقطة الانهيار ولحظة الاستسلام لهؤلاء الرجال ولم تكن مشاهد إجبار السجناء على ممارسة الجنس عن طريق الفم واجبارهم على النظر إلى الأعضاء التناسلية لاصدقائهم ودفع فتاة لإظهار اعجابها بمحاولات استثارتهم جنسيا سوى بعض من مفردات قاموس الإنحراف الصدامى لهذا. لنكن كما يقول الإمريكيون عمليين لقد علمتم ليندای وعشيقها وباقى الأمريكيين الساديين فى سجن أبو غريب أن يفعلوا هذا لقد اعتدت أن أسأل من الذى علم الشرطة السرية العراقية والسورية أن يتقنوا التعذيب وكانت الإجابة على السؤال السابق بسيطة وهى البوليس السرى لألمانيا الشرقية ولكن من الذى علم ليندای وباقى الجنود الساديين الأمريكيين؟

حسنا: لقد قيل لنا إنه تم التعاقد مع محققين من الخارج للعمل فى سجن أبو غريب ولدى من الأسباب ما يجعلنى اعتقد أن الجنرال جانيس ماريانسكى قائدة السجن قليلة الحظ والتى سوف يتم تسريحها من الخدمة فى الجيش الأمريكى بسبب عمليات تحقيقات لم تكن تحت اشرافها أو سلطتها كانت تعلم أن هناك غرباء يقومون باستجواب السجناء ولن يتم السماح لها أبدا بدخول حجرة التحقيق ويمكننى الآن أن أرى لماذا؟

إذن من كان هؤلاء المحققون الغامضون؟ إذا لم يكونوا من المخابرات الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفيدرالى؟

لقد بدأت تترد الأسماء فى الأوساط الصحفية إلا أن الصحفيين يقولون إنهم لا يملكون حتى الآن دليلا على هوية المحققين الغرباء أو عددهم واعتقد أن بعض المحققين يحمل أكثر من جواز سفر باسماء وجنسيات مختلفة؟

والسؤال الآن: لماذا تم جلب هؤلاء إلى أبو غريب؟ ومن الذى احضرهم وكم من الاجر يدفع لهم؟ ومن الذى يدربهم؟ ومن الذى علمهم أن قيام فتاة

بالإشارة إلى رجل عربى اجبر على الاستماء فكرة جيدة أو أهانة عراقى بتغطية رأسه بملابس داخلية نسائية وما حدث فى سجن أبو غريب لم يكن تصرفات هواه وإنما تصرفات محترفين وقد اعتذر بالأمس أخيرا الرئيس بوش للعالم العربى عن هذه القذرات ولا شك أن هذا حدث بسبب الصور التى نشرتها صحيفة الواشنطن بوست والتى اثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن ما حدث لم يكن سلوكا فرديا وهو ما يتناقض تماما مع المزاعم التى يرددها باستمرار كبار القيادات العسكرية الأمريكية فإن ما حدث لا يمثل القيم الأمريكية وبالتأكيد لم تكن ليندا ى وعشيقها اعضاء فى وحدة عسكرية للعمليات القذرة وإنما كانوا يفعلون كل البشاعات التى طلبت منهم لقد تم تشجيعهم وكان هذا أمرا من شخص ما.. من هو؟ ومتى يمكن أن نرى صورة وبطاقات هويتهم وجوازات سفرهم وأوامرهم نعم إنها جزء من ثقافة وتقاليد راسخة تعود إلى فترة الحملة الصليبية وهى أن المسلمين قذرون وفاسقون وغير مسيحيين ولا يستحقون أن يدعوا بشرا وهو تقريبا نفس ما يؤمن به أسامة بن لادن الذى نسبه المستر بوش تجاه العرب وهذه الحرب غير الشرعية وغير الإخلاقية والتى لا معنى لها أفرزت صورا تكشف عنصريتنا لقد تحول السجين مغطى الوجه والذى ثبتوا الاسلاك الكربائية فيه بجسده إلى ايقونة شهيرة سنتذكرها دائما مثلما نتذكر صورة الطائرة الثانية وهى تصطدم بمركز التجارة العالمى لا بالطبع فنحن لم نقتل الاف عراقى ولكن قتلنا أكثر من ذلك بكثير.

١٠٠ الف حالة تعذيب

بين الفترة من ٢٥ فبراير وحتى ١١ مارس الماضى أرسلت المنظمة العربية لحقوق الإنسان بعثة تقصى حقائق حاولت كشف بعض ما يحدث على أرض العراق المحتل على أيدى قوات الغزو الإنجلوا أمريكى رأس البعثة بو جمعة عشير عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة وأحمد عبيد الباحث بالمنظمة وعلاء شلبى عضو الأمانة التنفيذية حاولت المنظمة الوقوف على طبيعة الانتهاكات التى يتعرض لها الشعب العراقى سواء بشكل فردى أو جماعى تتم

بطريقة منظمة وفى كافة الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أيضا وموقف القانون الدولى منها.

ويلاحظ هذا أن أرسال بعثة المنظمة سبق فضيحة التعذيب الوحشى فى سجن أبو غريب. بشهرين تقريبا وهو ما اعتبرته المنظمة على لسان الأمين العام السيد محمد فائق بمثابة ملف توثيقى لكل ما جاء بتقريرها بدءا من مذابح الفلوجة والنجف إلى فضيحة التعذيب المصورة بأبو غريب إلى صور الأغتصاب الجماعى لنساء عراقيات يؤكد التقرير أن قوات الاحتلال خاصة الأمريكية مارست انتهاك الحق فى الحياة على نطاق واسع نتيجة القتل العمد للشعب العراقى والقتل الناتج عن التعذيب خاصة المشتبه فى انتمائهم للمقاومة العراقية فضلا عن القتل الخطأ إضافة إلى جرائم الاحتلال الأخرى كإشاعة الفوضى بسبب غياب الرقابة الأمنية التى زاد من شعور المواطنين بالخوف أنواع الجريمة وتقييد حرية الحركة.

القتل العمد

استمعت بعثة المنظمة إلى شهادات بعض المراقبين التى اكدت وقوع حالات قتل عمدية قد يصعب حصرها جميعا منها سبيل المثال ما قام به جنود الاحتلال فى مطلع يناير الماضى حيث قاموا بملاحقة سيارة نصف نقل كان يستقلها شابان وبعد تفتيشها والسماح لهما بالعبور من نقطة التفتيش عاد الجنود والقوا القبض عليهما وتقييدهما باسلاك بلاستيكية ذات اسنان حادة وقاموا بتغطية رأسيهما بأكياس سوداء تم ضربهما بالأيدى والأرجل والبنادق ثم تم نقلهما إلى أحد سدود المياه العالية وقاموا بالقائهما من المياه الجارفة فغرق أحدهما فيما تمكن الآخر من النجاة حاولت بعثة المنظمة مقابلة الشاب الذى نجا ولكنه تهرب منهم خوفا من بطش الاحتلال.

فوضى الميليشيات

حرص العراقيون فى مختلف لقاءاتهم ببعثة المنظمة على تحذيرهم من

التجوال ليلا فى أى من شوارع بغداد نتيجة لانتشار أعمال السلب المسلح نتيجة الغياب التام للتواجد الأمنى ولاحظت البعثة أن معظم المحلات تغلق أبوابها مبكرا وتعتبر الميليشيات المسلحة اخطر مظاهر الفوضى الأمنية حيث تقوم العشائر والمذاهب المختلفة بتدبير حراسة من ابنائها تتولى حماية مراكزهم الحيوية وعلى الرغم من الإزدحام الشديد فى ساعات النهار إلا أن مظاهر الأغلاق تسيطر على معظم شوارع بغداد خاصة أن سلطات الاحتلال اغلقت ستين شارعا رئيسيا فى بغداد.

الأمان الشخصى

يعانى العراقيون بصفة مستمرة من عمليات المداهمة التى تتسم بقدر كبير من العشوائية حيث عادة تضم عدة منازل متجاورة وتتم بناء على الاشتباه أو الوشاية وتبدأ عمليات المداهمة عادة باقتحام الدبابات الأمريكية لباب البيت الخارجى مترافقا معها عمليات انزال جنود من الطائرات المروحية فوق اسطح المنازل تتبعها عملية تفجير للأبواب بمواد ناسفة تستعمل معها قنابل صوتية وعادة يصر الجنود على تفجير الأبواب حتى لو ابدى أصحاب المنازل رغبتهم فى فتحها بأنفسهم بعدها تبدأ عمليات تفتيش عنيفة تنتهى بتدمير المنزل وتتزامن مع جمع النساء والأطفال فى إحدى الغرف والقاء القبض على الرجال الصبية ولا تنتهى عملية التفتيش إلا بعد تفتيش النساء والأطفال الرضع والإستيلاء على الأموال والمنقولات الثمينة وكافة الأوراق الشخصية وشهادات الجنسية وتنتهى العملية بنقل الرجال معصوبى الأيدى والأعين وعادة ما يتم ضرب وركل المعتقلين خلال نقلهم إلى اماكن الاحتجاز حيث يبدأ مسلسل آخر من التعذيب والاستجواب الذى يستمر لأيام لا يحصلون خلالها إلا على وجبة واحدة يوميا لا تكاد تكفى فردا واحدا ثم يتم الافراج عن البعض بعد ثلاثة أيام على الأقل ويتم ترحيل الباقين إلى سجون اعدت خصيصا لمن تسميهم معتقلين أمنيين.

أما التعذيب فقد تفنن الأمريكان فى ابتكاره وتبدأ بالضرب والحرمان

من النوم بتشغيل موسيقى صاخبة عالية الصوت لأوقات طويلة تصل إلى ٢٤ ساعة إلى جانب المعتقلين الأمنيين بخمسة عشر الف معتقل بينما تشير المعلومات المتواترة من العراق أن الرقم الحقيقى للمعتقلين أضعاف هذا الرقم فضلا عن اعتقال النساء لفترات طويلة كرهائن لحين تسليم ذويهن وتتضارب الأرقام حول عدد النساء والمعتقلات.

معاملة السجناء

يحتجز المعتقلون العراقيون فى سجون أبو غريب والمطار والرصافة والكاظمية وأم قصر والناصرية والرضوانية وغيرها من اماكن الاعتقال التى احدثتها سلطة الاحتلال وسط ظروف بالغة الصعوبة حيث يتم الزج بالمقبوض عليهم فى خيام مقامة فى العراء وسط مناخ شديد القسوة وتوضع المعتقلات من النساء فى زنازين متهالكة وغير نظيفة ويحرم الجميع من الغذاء عدة أيام وبعدها يقدم طعام غير صالح للإستهلاك الأدمى وتعطى لهم كميات قليلة من المياه ويقضى المعتقلون حاجاتهم فى مراحيض بلاستيكية مكشوفة.

اشار بعض المحتجزين إلى أن عمليات تعذيب قد جرت لهم مثل القائهم فى مياه مثلجة أو اجبارهم على السباحة فى ساعات متأخرة من الليل أو الضرب المبرح فى أماكن حساسة وتحجز النساء والفتيات ومن بينهن القصر فى سجون لاتخضع لإدارة واشراف الشرطة وتعد عملية احتجاز النساء فى السجون بصورة عامة وتحت اشراف أمريكى بصورة خاصة عارا يلاحق الاسر ويدفعهما إلى التخلص من اللواتى افرج عنهن قتلا خاصة بعد اكتشاف العديد من الوقائع التى تم فيها كشف الفتيات عرايا أمام ذويهن وقد اتفق معظم المعتقلين خلال فترة الاحتجاز مقيدين من الخلف بقيود بلاستيكية مسننة تهددهم فى حال الحركة بالجرح أو قطع الأوردة.

- لا ينال المعتقلون قضاء حاجاتهم إلا تحت سمع وبصر الحراس.

- يحصلون فى العادة على وجبة غذاء ضعيفة وباردة.
- يمكن تعذيبهم بإبقائهم جالسين لثلاث أيام متصلة على مقعد خشبى.
- يتم تعذيب البعض بربط كلتا يديه بقيد حديدى فى عمود معدنى فى الشمس لفترات طويلة.
- تعانى السجون الكبيرة وأهمها أبو غريب من اكتظاظ ضخم فى عدد السجناء.
- أدى تكدس السجناء إلى اقامة خيام فى العراء تضم أعداد كثيفة من المعتقلين يضطرون إزاءها إلى التناوب على النوم.
- يتم صف المعتقلين لقضاء الحاجة مرتين يوميا.
- تمنح كل خيمة تضم ٥٥ معتقلا عبوتين من المياه يوميا للشرب والاستحمام.
- تغيب بشكل تام للرعاية الصحية رغم انتشار الأمراض بين المعتقلين.
- يتلقى المعتقلون وجبتين باردتين يوميا إحداهما كميتها معقولة والثانية قليلة الكمية للغاية وفى الحالتين فالطعام ردئ ويمتنع المعتقلون عن تناوله خلال الأيام الأولى من الاحتجاز قبل أن تضطرهم الحاجة إليه.
- يتعمد حراس السجون الأمريكيون فى بعض الأحيان فتح أبواب الغرف التى يمارسون فيها التعذيب خلال التحقيقات أو بدونها لإسماع بقية المعتقلين صراخ زملائهم.
- غير مسموح لأى من المعتقلون الأمنين بتلقى زيارات المحامين أو الأقارب وصلاتهم مقطوعة بالخارج نهائيا.
- لا يتمكن افراد الأسرة الواحدة المعتقلون معا من الإطلاع على أحوال ذويهم المعتقلين معهم.

- يتعامل بعض الحراس الأمريكيين مع المعتقلين بعنصرية كبيرة ويتمنون لهم الموت باعتبارهم كائنات لا تستحق الحياة.
- يتم فى بعض الاحيان اطلاق المعتقلين مقيدين ومعصومين فى الطريق العام ومن دون متعلقاتهم الشخصية وبثياب السجن مما يعرضهم لمخاطر جمة.
- لا يتسلم المعتقلون عند الافراج منقولاتهم وخاصة الثمينة منها مثل الأموال وحلى النساء المصادرة خلال المدهم فضلا عن ضياع الأوراق الثبوتية الخاصة بهم وبذويهم.
- يبلغ المترجمون العراقيون المعتقلين قبل الافراج عنهم بضرورة توجيه الشكر إلى قائد السجن الأمريكى عن حسن المعاملة فى الاحتجاز وعدم السؤال عن المتعلقات الشخصية وإلا اعيدو للاحتجاز.
- ينتمى غالبية المعتقلين الأمنيين إلى العشائر العربية السنية وهو ما يؤدى إلى دفع الحال إلى مزيد من الاحتقان الأهلى وقد نقلت منظمات حقوقية إلى البعثة أن القوائم المعلنة باسماء المعتقلين الأمنيين لا تشمل كثيرا من الحالات الموثقة لديها وأن الانتهاكات التى يمارسها الاحتلال توصف بالانتهاكات المنهجية وافادت مسئولة المركز الدولى لرصد الاحتلال قيام مركزها بتوثيق ١٠٠ ألف حالة.

معاناة المرأة العراقية في ظل الاحتلال

تعيش المرأة العراقية وضعا ماساويا فى زمن الاحتلال بحيث يمكن أن توجه لها اى تهمة بعثية أو زوجة بعثى أو اخت بعثى أو اية تهمة أخرى وليس ضروريا اثبات التهمة ولا اجراء تحقيق ويمتد الحجز لزمن غير محدد ووقائع التحرش الجنسى ثابتة باعتراف بعض السجينات أو صمت بعضهن فى مجتمع يخشى عار البوح العلنى الخوف والشعور بالعار يمنع النساء من التصريح بما جرى لهن وخاصة أن امتهان كرامتهن لا يلقى تفهما من الوسط العائلى والاجتماعى فكرامة المرأة تمتهن من الذى القى عليها القبض ومن السجان وحتى إن خرجت من السجن فهى ترضى من الأسرة والعشيرة حسب ما جمعته البعثة من معلومات فإن عدد السجينات السياسيات بلغ ١٣ سجينة وردت اسماؤهن فى الجريدة الشهرية للمركز الدولى لرصد الاحتلال ومن بينهن.

- خديجة ياسين رمضان شقيقة طه ياسين رمضان وزوجة معروف نورى الهاشمى أم لأربعة أبناء التهمة بعثية وشقيقة طه ياسين رمضان اعتقلت فى ١٥ / ٨ / ٢٠٠٣ وخارج قوانين الأحوال الشخصية فرضت على المرأة العراقية قوانين تقيد حريتها وتبيح دمها وتعفى الجانى من العقاب إضافة إلى منعها من السفر إلا بمرافقة محرم وكل من اتهمت بالدعارة يقطع

راسها هذا إضافة إلى أن المرأة تعاقب إذا تعرض زوجها أو ابنها أو أحد أقاربها إلى العقاب بل وتحرم من الميراث ومن ممتلكاتها هى وأفراد أسرتها وأبنائها وازدياد معاناة المرأة فى البيت والشارع وبعض الدوائر الرسمية بدءا من التحرش الجنسى إلى التجاوزات المستمرة على حقوقها وباشكال مختلفة أزدياد عدد النساء اللاتى فقدن ازواجهن نتيجة الحرب المتكررة وأعمال القتل التى مارسها الاحتلال إزدياد عدد الفتيات اللاتى حرمن من التعليم نتيجة الوضع الاقتصادى وحالة الأمن والاختطاف.

ازدياد حالات القتل بدواعى الشرف والنظرة الدونية للمرأة بما فى ذلك من تعرضن للاعتقال من قوات الاحتلال انتشار العنف العائلى بمختلف اشكاله.

انتشار الأمراض النفسية بين النساء لأسباب مختلفة الوضع العام المتسم بالتوتر والقلق والخوف من المجهول إضافة إلى الحالة الاقتصادية والأجتماعية وبقائهن داخل البيوت طيلة الليل والنهار وغرقهن بين مشاكل العائلة والأطفال.

وسقطت
أسطورة الحرب النظيفة

جريمة حرب أمريكية

لقد شهدت جرائم الإعتداء على المدنيين تصاعداً واضحاً يتناسب طردياً مع إصرار الشعب على المقاومة، وفى هذا الإطار وقعت مذبحة حى «الشعلة» مثلاً التى أطاح فيها صاروخ «كروز» موجّه أو طائش لا فرق - بحياة ٥٥ عراقياً كانوا يتجولون داخل السوق المكتظ.

التحالف يمتلك الآن حجة يحاول من خلالها تبرير جرائمه وهى أن المليشيات المسلحة المعروفة باسم (فدائيو صدّام) يرتدون الملابس المدنية، وأنهم يدعون الإستسلام ثم يقاومون بصداوة، وبالتالى فإن قوات ما يسمى بالتحالف قد إشتبه الأمر عليهم، لو أنهم كانوا أكثر صدقاً لقالوا صراحة أنه لم يعد هناك فارق بين الشعب والجيش، فالكل يرفض الإحتلال، والكل يستحق - لهذا - صواريخ «كروز» و (توماهوك) مع تحيات (العم سام).

العدوان على العراق أسقط أيضاً أسطورة أخرى هى ما سمى بالأسلحة الذكية التى تعرف أهدافها، فقد إكتشف الجميع أن الصواريخ تاهت فجأة لتصل إلى إيران وتركيا بل إن النيران الصديقة قد طاشت عن مسارها لتقتل جنود التحالف وبعض الصحفيين.

الخسائر الجانبية

كل ذلك توقعه بعض العقلاء في وقت مبكر، وكان منهم «روبين كوك» الوزير البريطاني المستقيل إحتجاجاً على إندلاع الحرب. دون الحصول على شرعية من مجلس الأمن. كتب «كوك» مقالاً مهماً في «الضداي ميرور» نشر بعد يومين فقط من العدوان وأشار فيه إلى خطورة تعبير (الصدمة والرعب) الذي كرره «رونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الأمريكي. وقال الوزير البريطاني المستقيل: (إنني أشك كثيراً في أن العائلات العراقية التي تفزعها الإنفجارات سيراودها الشعور بأن هذه الحرب تستهدف تحريرهم، وأنها ستكون حقاً معجزة لو أن هؤلاء العراقيين لم يصبحوا جزءاً من تلك الإحصائيات المثيرة للإشمئزاز التي يطلقون عليها تعبير (الخسائر الجانبية) ويحكي «كوك» في مقاله المهم عن أنه كان يرفض التوقيع على الخطابات التي تحمل عبارة (خسارة جانبية) وذلك أثناء توليه منصب (وزير الخارجية) كما أنه كان يعتقد دوماً أنه إذا كان هناك ضحايا من المدنيين فإن علينا على الأقل أن تعطيهم الإعتبار اللائق بأن نعتبرهم بشر مثلنا.

ولإبراء ذمته أمام التاريخ يذكر (كوك) أنه حذر في إجتماعات مجلس الوزراء البريطاني من أن خطة (الصدمة والرعب) التي إقترحها (رامسفيلد) ستكون (دموية) ولكنهم أخبروه (وربما كان يقصد بلير) أن الخطط المستهدفة ستكون دقيقة ومُختارة بعناية فائقة!

وعلى الرغم من أن «كوك» ـ الوزير المخضرم ـ يؤكد ثقته فى (إحترافية) القوات البريطانية فإنه يعلن بصراحة أن دقة أحدث الصواريخ يعتمد على وجود هامش للخطأ قد يرتكبه الشخص الذى يقوم ببرمجة مثل هذه الصواريخ، ويضرب مثلاً لتلك الأخطاء بما فعلته صواريخ «كروز» من تدمير فى السفارة الصينية.

(ربما يقصد ذلك الحادث الشهير الذى وقع أثناء الحرب ضد القوات الصربية).

ويذكر «كوك» نموذجاً آخر يفضح أكذوبة الأسلحة الذكية. فقبل أن يترك منصبه كوزير للخارجية بوقت قليل، وقع خطأ فاضح ومذهل من هذه النوعية فى المنطقة التى حُظر فيها الطيران داخل العراق، فقد قامت الطائرات الأمريكية بقصف خيام لرعى الماعز كانت صور الأقمار الصناعية قد أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنها بطاريات مدفعية عراقية مضادة للطائرات!

ويعود «كوك» للتحذير من الإنخداع بما يسمى «القنابل الذكية» لأنه ستكون دائماً أخطاء غبية فى عملية القصف كما حدث فى حروب سابقة فإذا تكرر ذلك فإننا ـ كما يقول ـ سنتحدث مرة أخرى عن الدروس التى كان يجب أن نتعلمها من أخطاء الماضى، ولكننا لن نستطيع أن نفعل شيئاً لإعادة ضحية واحدة من ضحايانا إلى الحياة.

ومن أجل كل هذا إتخذ (روبين كوك) موقفه المعروف بأن تكون الحرب الملاذ الأخير، وفى حالة العراق بالتحديد فإنه كان من الضرورى أن تمنح فرق بالتحديد فإنه كان من الضرورى أن تمنح فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة الوقت اللازم لإنهاء عملها قبل الإندفاع بإتجاه الحرب.

الطريقة الجراحية

ومما يزعج بالفعل حول مصير المدنيين العراقيين أن هناك آراء إنتقدت - وفى وقت مبكر من بداية الحرب - ما أعلنته قوات التحالف عن خطتها لإستئصال نظام صدام بطريقة (جراحية) تقليلاً لعدد الضحايا. كما زعموا.

حتى هذا (الزعيم) إنتقده بعض الخبراء العسكريين مثل الميجور جنرال «بيتركورى» الخبير العسكرى البريطانى الذى خدم فى (أيرلندا) واشترك فى حروب «فوكلاند» والبوسنة. «كورى» يشير فى دهشة إلى أن أنوار (بغداد) وكانت الحرب فى أيامها الأولى - مازالت مُضاءة، ومازالت القطارات تسير، كما أن المستشفيات مازالت تعالج المصابين فى العراق ويتساءل الميجور «كورى» لماذا يحدث ذلك؟ ويجيب: لأن «جيفرى هون» وزير الدفاع البريطانى قال (إننا نريد أن نحافظ على سلامة البنية الأساسية للعراق).

ملامح خطة التحالف المُعلنة، كما يقول «كورى» التركيز على قصف أهداف منتقاة بعناية مع ضرب وسائل الدفاع الجوى لصدام وأدوات الإتصال مع قواته وتدمير مراكز التحكم والسيطرة، ويصف هذه الخطة بأنها تحاول إستخدام الأسلوب الجراحى فى التخلص من نظام (صدّام حسين).

ولكن (كورى) يرفض هذا الأسلوب الذى يطلق عليه إختصاراً (M L F) أو إستخدام الحد الأدنى من القوة المميتة) ويفسر ذلك بقوله إن الأمر يقتضى هنا إستخداماً أقل درجة من قوة النيران لتدمير عدد لم تعد أمامه فرصة للبقاء، وبموجب هذه الخطة فإن الخسائر الجانبية (ويبدو أن هذا هو التعبير المفضل لوصف الضحايا من المدنيين) يجب أن تكون أيضاً فى أقل مستوى ممكن.

والسؤال المطروح الآن هل بالفعل تم الأخذ بنصيحة الميجور جنرال (كورى) أم أن النيران الطائشة طالت كل شئ وزادت (الخسائر الجانبية!!) بشكل كبير؟.. هذا ما ستوضحه الأيام القادمة. بعد أن تظهر الحقائق والإحصائيات الصحيحة.

الخاتمة

الخاتمة

الإستعمارية الأمريكية

لم يختلف المفكرون والمؤرخون حول السمة أو الطبيعة الإمبريالية للولايات المتحدة الأمريكية لكن إختلافاتهم إنحصرت فى مسألتين. الأولى هى طبيعة هذه الأمبريالية وما إذا كانت ذات طبيعة تقدميه كما ذهبت وجهة النظر الأمريكية . غايتها نشر قيم الحضارة الأمريكية فى التقدم والحرية أم أنها إمبريالية شريرة شأن أى إمبريالية أخرى غايتها نهب خيرات الشعوب وإخضاعها لسيادتها.

أما وجه الخلاف الثانى فقد إتصل بالزمن الذى تحولت فيه الولايات المتحدة إلى قوة إمبريالية فذهب البعض إلى أن التوجه الأمريكى نحو المرحلة الإمبريالية ظهر فى التاريخ الأمريكى منذ أخريات القرن التاسع عشر وعلى وجه التحديد منذ عام ١٨٩٨ فى حين ذهب البعض الآخر إلى أن الإتجاهات الإستعمارية فى أوائل القرن السابع عشر وذهب فريق ثالث إلى إعتبار مبدأ مونرو الذى صدر فى عام ١٨٢٣ هو بداية التوجه الإستعمارى فى التاريخ الأمريكى.

الإمبريالية «الإستعمارية» الأمريكية فى نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٨)

وكانت وجهة نظر الفريق الأول هو أن الولايات المتحدة التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر من ١٣ ولاية يسكنها ٣,٥ مليون نسمة فى مساحة ٢ مليون كم^2 لم يمض عليها قرن واحد حتى أصبحت فى أواخر القرن

التاسع عشر تتكون من ٤٩ ولاية يسكنها ٧٦ مليون نسمة فى مساحة تزيد على ٩ مليون كم٢ وأن الجمهورية الصغيرة تحولت إلى دولة كبرى عالمية وأصبحت أعظم أمة فى الصناعة وأغنى دولة فى الزراعة ولديها فائض مالى كبير أكثر مما لدى أى دولة أخرى.

كان من الطبيعى أن تتجه الرأسمالية الأمريكية الكبيرة فى نموها المتعاظم ورغبتها المتزايدة فى تحقيق مزيد من الربح إلى البحث عن أسواق جديدة لإستثماراتها. ولذلك تغلغلت هذه الرأسمالية خارج حدودها فيما عُرف بالإمبريالية الإقتصادية وجرت السياسة الأمريكية خلفها نحو المرحلة الإمبريالية التى ظهرت فى التاريخ الأمريكى منذ أخريات القرن التاسع عشر.

جذور الإمبريالية الأمريكية

لكن المفكر الأمريكى «نعوم تشومسكى» يخالف هذا الرأى ويرى أن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية إتسم منذ بدايات المبكرة فى أوائل القرن السابع عشر (١٦٠٧) بالسمة الإمبريالية فحركة إستيطان الأوربيين البيض أراضى أمريكا كانت حركة إستعمارية منذ البداية والمستوطنون الأوائل اعتنقوا فكرة الشعب المختار وأرض الميعاد وبالتالى كانت التربة خصبة منذ البدايات الأولى للأفكار العنصرية والإتجاهات الإستعمارية.

ويتوقف تشومسكى عند المرحلة المبكرة من التاريخ الأمريكى وهى المرحلة التى تمت فيها عملية الإستيطان وتأسيس الدولة والتوسع نحو الغرب على حساب إبادة السكان الأصليين من الهنود الحمر ليدى أربعة ملاحظات هامة.

الملاحظة الأولى. إن إكتشاف أمريكا فى عام ١٤٩٢ أطلق عملية غزو العالم الجديد وتسبب فى كوارث سكانية لا مثيل لها فى التاريخ فقد أدى إلى إهلاك السكان الأصليين وإبادة عدة ملايين من الهنود الحمر.

الملاحظة الثانية: أن الهنود الحمر لم يكونوا مجرد وحوش وذئاب كما

وصفهم جورج واشنطن بل كانوا قبائل مسالمة تعرضت لعدوان المستوطنين البيض الذين فرضوا الحرب ومارسوا الوحشية واقتلعوا الهنود كما يقتلعون الأشجار لقد تعامل المستوطنين البيض مع الهنود بأسلوب توراتى وتصوروا أنفسهم شعب الله المختار وأن أمريكا هى أرض الميعاد التى وهبها لهم الرب وقاموا بذبح النساء والأطفال والعجائز ثم حاولوا تزييف التاريخ لكن التاريخ مازال يحتفظ بالتفاصيل الشنيعة لعمليات الإبادة الجماعية لهنود البيكوت وذبح هنود الألجونكين المسالمين دليلاً على وحشية المستوطنين البيض.

الملاحظة الثالثة: تتصل بحرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥ . ١٧٨٣) وأسبابها الحقيقية المتصلة بعملية التوسع نحو الغرب فبعد أن نجح المستوطنين البيض فى تأسيس ١٣ ولاية أمريكية على الساحل الشرقى فى مساحة كبيرة من الأرض تصل إلى مليونى كم^2 كان يسكنها نحو ثلاثة ملايين من المستوطنين البيض زادت شهيتهم للتوسع نحو الغرب لكن بريطانيا قررت وقف الزحف غرباً ومنع الإستيلاء على أرض الهنود فهب المستوطنين الأمريكيون للثورة ضد إنجلترا وإزاحتها حتى يطلقو لرغباتهم الإستعمارية العنان فى التوسع غرباً وإبادة الهنود.

الملاحظة الرابعة: تتصل بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى التوسع نحو الغرب وإستمرار إبادة الهنود فى القرن التاسع عشر وعدم الإعتراف للهنود بأى حقوق على أراضيهم طبقاً لفتوى جورج مارشال رئيس المحكمة العليا الأمريكية.

وأخيراً هذه هى جذور أمريكا الإستعمارية والذى يُعدّ تاريخها كله «حتى الآن» منظومة إستعمارية وتوسع وإبادة. وعدم إعتراف بالآخر.

والسؤال الآن.

ماذا سيفعل المسلمون؟. ماذا سيفعل العرب إذاء كل هذه الأطماع فى النفط والأرض وحتى المقدسات.

الفهـــرس